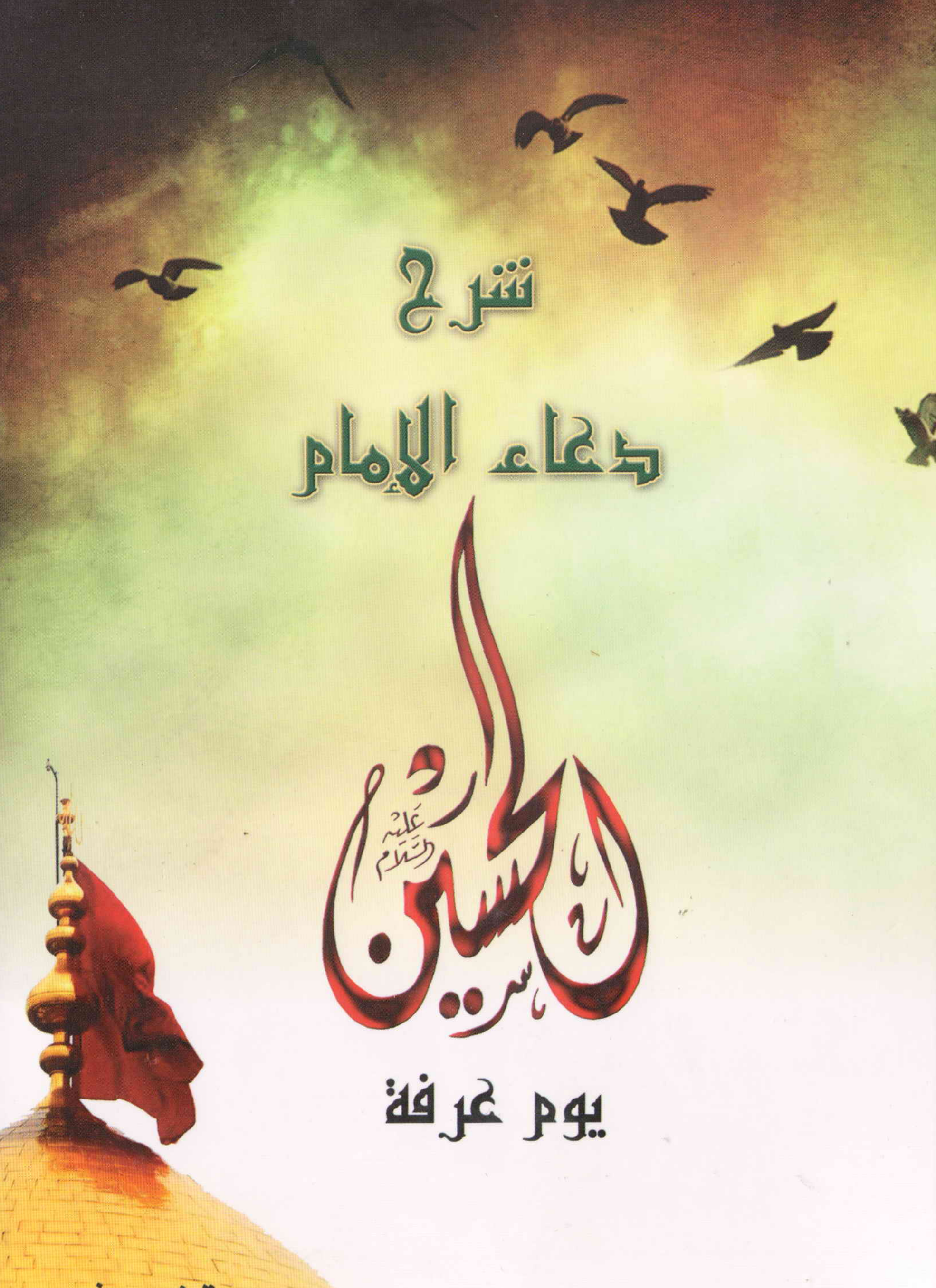
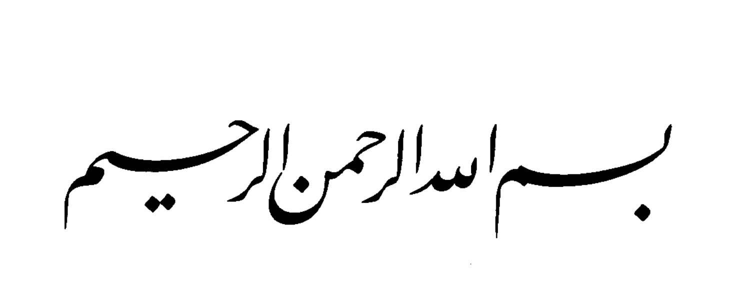
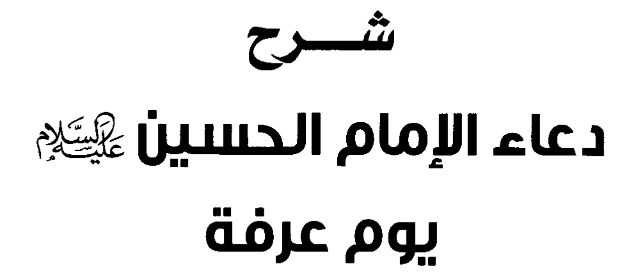


شرح
دعاء الإمام
الحسين عليه السلام
يوم عرفة
مرتضى فرج


بسم الله الرحمن الرحيم



مرتضى فرج

١٤٣٣ هجرية

الطبعة الأولى

مقدمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وصلى اللهُ على سيِّدنا محمد وآلهِ الطيبينَ الطَّاهرين

قال اللهُ عزَّ وجل في كتابِهِ الكريم: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (البقرة، ١٨٦)

ذكر المفسِّرون أنَّ سببَ نزول هذهِ الآية هو أنَّ رجلاً سألَ رسولَ الله (ص) عن اللهِ عزَّ وجل: أهو قريبٌ فأُناجيه أم بعيدٌ فأُناديه؟ فنزلَت هذهِ الآية.

هذهِ الآية تتحدَّث إذن عن قُرْبِ الله من الإنسان. القُرْب نقيضُهُ البُعد، وكلاهما ينطوي على مفهوم المكان، وهو في ذاتِهِ تعالى غير وارد، لأنَّهُ منزَّهٌ عن المكان، كيفَ وهو خالقُ المكان. وإنَّما المراد بقُرْبِ الله من العَبْدِ علمُهُ بحالِه وبسائرِ تقلُّباتِهِ، ودوام إمداد الله لهُ بمقوِّماتِ الحياة وأسبابِ العَيْش والحَوْلِ والقوَّةِ لحظةً فلحظة. والإنسانُ بأمسِّ الحاجة لاستشعار هذا القُرْب والمعيَّة.[1]

[1] بالإضافة إلى هذهِ الآية، ثمَّة آياتٌ أُخرى تتحدَّث عن القُرْب والحيلولة بينَ المرْءِ وقَلْبِه والمعيَّة، كقولِه تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" (ق، ١٦)، وقولِه "وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (الحديد، ٤)، وقولِه "وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" (الأنفال، ٢٤).



هذه الآية تتحدَّث أيضاً عن الدُّعاء، وأنَّ اللهَ عزَّ وجل يستَجيبُ للدَّاعِ إذا دعاهُ. والدُّعاء – لغوياً – هو الصَّيحة والاستدعاء والنِّداء والاستغاثة. وعندما يكون الدُّعاء لله تعالى فيعني حينئذٍ الرَّغْبة إليه وتعظيمه وتنزيهه وشكره والثَّناء عليه والطَّلب منه عزَّ وجل. فالإنسانُ يؤمن عادَةً بأنَّ للأسبابِ المادِّية تأثيرٌ في تحقُّق كثير من حوادِث الكون؛ فمثلاً السَّعي سببٌ لكسْبِ الرِّزق، المذاكرة سببٌ للنَّجاحِ في الإمتحان، المنافسة سببٌ للحُصولِ على موقعٍ معيَّن، مراجعةُ الطَّبيب سببٌ للحُصولِ على العلاجِ المناسِب، الاستعدادُ القوي بالعتادِ والعُدَّة سببٌ للنَّصرِ في المعركة. هذهِ هي أسبابٌ بالفعل، لكن الإنسان قد يغفَل ويظُنّ أنَّ هذهِ العوامل والأسباب المادِّية كفيلةٌ بنفسِها، بأنْ تُحقِّق – وبمعزل عن اللهِ تعالى - ما يُريد.

إخبار الله الإنسان بأنَّ للدُّعاءِ – عند تحقُّق بعض الشُّروط – تأثيرٌ في فاعليةِ الأسباب المادِّية، والقُدْرة على تغييرِ القضاء، يعتبرُ من أفضلِ وأعمَق وأكبر نِعَمِ الله عزَّ وجل علينا. وقد ورَدَ في الحديث عن أبي عبد الله (ع): إنَّ الدُّعاءَ يرُدُّ القضاءَ وقد نزَلَ من السَّماءِ وقد أُبرِمَ إبراماً.

وعن أبي الحسن موسى الكاظم (ع): عليكُم بالدُّعاء، فإنَّ الدُّعاءَ للهِ والطَّلَبِ إلى اللهِ يردُّ البلاء وقد قُدِّرَ وقُضيَ و لم يبْقَ إلا إمضاؤُهُ، فإذا دُعِيَ اللهُ عزَّ وجل وسُئِل، صُرِفَ البلاءُ صَرْفَةً.

لذا، رسولُ الله (ص) وأهلُ بيتهِ وصفوا الدُّعاءَ بأنَّهُ السِّلاحُ الحقيقي للمؤمن. وورَدَ عن رسولِ الله (ص): ألا أدُلُّكم على سِلاحٍ يُنْجيكُم من أعدائكُم ويدُرُّ أرزاقكُم؟ قالوا: بلى، قال: تَدْعُونَ ربَّكُم باللَّيلِ والنَّهارِ فإنَّ سلاحَ المؤمن الدُّعاء.



وعن الرِّضا (ع) أنَّهُ كانَ يقولُ لأصحابهِ: عليكُم بسِلاحِ الأنبياء، فقيـــل: ومـــا سِلاحُ الأنبياء؟ قال: الدُّعاء.

وأكَّدَ أهلُ البيت (ع) على قوَّةِ تأثير الدُّعاء، فقد ورَدَ عن أبي عبد الله الـــصادق (ع): الدُّعاءُ أنفذَ من السِّنانِ الحديد.

للدُّعاء آداب معنوية:

فمن تلكَ الآداب التي يُفترَض للدَّاعي أنْ يُراعيها:

١. أنْ يترصَّد لدُعائِهِ الأوقات الشَّريفة، كالعَشْر الأواخِر من شهر رمـــضان، ويوم عرَفة من السَّنَة، وليلة ويوم الجمعة من الأسبوع، ووَقْت السَّحَر من ساعاتِ اللَّيل، وزوال الشَّمس من النَّهار، ووقت نزول المطـــر، ولحظـــة سماع الأذان.

٢. أنْ يترصَّد لدُعائِهِ الأماكن الشَّريفة، كبيتِ الله الحرام، خـــصوصاً عنـــد الحطيم والمستجار وحِجْر إسماعيل والرُّكن اليَماني ومقام إبراهيم طـــوال السَّنة، وعرَفَة ومزدلِفة ومِنى في أيامِ الحج. وكالمسجد النبوي، خـــصوصاً عندَ قبرِ النبي (ص). وعند قبرِ فاطمة (ع). وعندَ مراقـــدِ الأئمـــة (ع)، خصوصاً سيِّد الشُّهداء الإمام الحسين (ع). وفي مسجدِ الكوفة ومسجدِ البصرة، وقبور الشُّهداء والصَّالحين، خـــصوصاً شُـــهداء بَـــدْر وأُحُـــد وكربلاء.

٣. أنْ يدعو مستقبِلَ القِبْلة ويرفَع يديهِ كاستطعامِ المسْكين.



٤. أنْ يُخفِض صوتَهُ بينَ المخافَتَة والجهْر. فقد قالَ عزَّ وجل "فإنِّي قريـــب". وقد رُويَ أنَّ الناس لما قدِمُوا مع رسولِ الله (ص) ودَنَـــوا مـــن المدينـــةِ كبَّرُوا، ورَفَعُوا أصواتَهُم، فقال (ص): يا أيُّها النَّاس، إنَّ الذينَ تَـــدْعون ليسَ بأصَمٍّ ولا غائِب، إنَّ الذي تَدْعون بينَكُم وبينَ أعناقِ ركابِكُم.

٥. أنْ لا يتكلَّف السَّجَع في الدُّعاء. وقيل أنَّ معنى قوله تعالى "ادعو ربَّكُـــم تضرُّعاً وخفية إنَّهُ لا يُحِبُّ المعتَدين" النَّهي عن التكلُّف في الإسجاع.

٦. أنْ يُلِح في الدُّعاء ويُكرِّر. فقد رُويَ عن الصادق (ع): إنَّ اللهَ كرهَ إلحاحُ الناسِ بعضَهُم على بعضٍ في المسألةِ وأحبَّ ذلكَ لنفسه، إنَّ اللهَ يُحبُّ أن يُسألَ ويُطلبَ ما عندَهُ.

٧. أنْ يفتَتِح الدُّعاء بذِكْرِ الله ورسولِهِ وأهل بيته والاعتراف بالذَّنْب. فقـــد رُويَ عن أبي عبد الله (ع): إيَّاكُم أنْ يسألَ أحدُكُم ربَّهُ شيئاً من حوائجِ الدُّنيا والآخرة، حتى يبدأ بالثَّناءِ على الله، والمِدْحَةِ لهُ، والصَّلاةِ على النَّبي وآله، والاعترافِ بالذَّنْب، ثمَّ المسألة. أيضاً رُويَ عن أبي عبد الله (ع): لا يزالُ الدُّعاءُ محجوباً حتى يُصلى على محمدٍ وآلِ محمد.

٨. وللدُّعاء آداب أخرى لاعتبارات مختلفة، كالبُكاء أثناء الدُّعاء، والـــدُّعاء للأخوان، واجتماع النَّاس حال الدُّعاء.



وللدُّعاء شروط:

إنْ أرادَ الدَّاعي لدُعائه أنْ يُستجاب، فلابدَّ أنْ يستوفي دعاءَهُ الشُّروط التالية:

١. أنْ لا يكونَ خارقاً للسُّنَن والقوانين الكونيَّة. كأنْ يطلُب من اللهِ أنْ يجعَلْهُ خالِداً في الدُّنيا.

٢. التَّوبة وردّ المظالِم إلى أهلِها. فكيفَ يُستجابُ الدُّعاء وتُقبَل التَّوبة، وفي رقبةِ الإنسان مظلَمة من مظالِمِ أهل الدُّنيا؟

٣. التضرُّع والخشوع للهِ تعالى، والرَّغبة الحقيقية بما عندَهُ والرَّهبة منه، والإقبال بالقَلْبِ عليه، والإحساس العميق بالحاجة إليه، فيَدْعُوهُ دُعاءَ الغريق الذي يئسَ من أسبابِ النَّجاة. لا أنْ يدعو الله عزَّ وجل وهو يُعوِّل على الأسبابِ المادِّية، بل يضَعْ في اعتبارِهِ أنَّ تأثير هذهِ الأسباب بيدِهِ تعالى، فهي بمشيئتِهِ دونَ قولِهِ مُؤْتمِرة، وبإرادتِهِ دونَ نهيِهِ مُنْزَجِرة.

٤. اليقين بحَتْميَّة الاستجابة. لأنَّ اللهَ وعَدَ وقال: "أجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا دَعان"، و"من أصدَقُ من اللهِ قيلاً"؟ لكن ليسَ من الضَّروري أنْ تكون الإجابة بالسُّرْعة والكيفية التي يريدُها الإنسان. وعليهِ أنْ يُلقِّن نفسَهُ دائماً: "ولعلَّ الذي أبطأَ عنِّي هو خيرٌ لي لعِلْمِكَ بعاقبةِ الأمور". فعن أبي عبدالله الصادق (ع) قال: إنَّ العبدَ ليدعو فيقول اللهُ عزَّ وجل للملَكين: قد استجَبْتُ له، ولكن احبسوهُ بحاجته، فإنِّي أُحبُّ أنْ أسمعَ صوتَهُ. وإنَّ العبدَ ليدعو فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: عجِّلوا لهُ حاجتَهُ فإنِّي أُبغِضُ صوتَهُ.



٥. أنْ يقترن الدُّعاء مع العمَل بالتكاليفِ الشرعية، كالجهادِ المستمر ضـــدّ كلِّ ألوان الفساد، والقيام بوظيفةِ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكـــر. عن رسولِ الله (ص): لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتَنهُنَّ عن المنكرِ، أو ليُسلِّطنَّ اللهُ شرارَكُم على خِيارِكُم، فيدعو خيارُكُم فلا يُستجابُ لهم".

٦. أنْ يقترن الدُّعاء مع السَّعي لتهيئة الأسباب، من خلال توفير كل الأسباب المادِّية الممكنة، فقد رُويَ عن أمير المؤمنين (ع): الدَّاعي بلا عمَل، كالرَّامي بلا وتَر.

أكتفي بهذا القدر من الكلام عن الدُّعاء، وأنتقل الآن للكلام عن دُعاءِ الإمام الحسين (ع) في يومِ عرفة.

دعاءُ الإمام الحسين (ع) في يومِ عرفة:

لا يخفى على أحد أنَّ لكلِّ طائفة من أرباب الفنون والعلوم، بل لكلِّ أمَّة، أسلوباً خاصاً من البيان، ولكلِّ بلدٍ لهجة متميِّزة عن غيرها. ولأئمة أهل البيت (ع) أسلوب خاص في الثناء على الله والضراعة له والمسألة منه، يعرف ذلك من مارس أحاديثهم وآنس بكلامهم وخاض في بحر أدعيتهم. ومن حصلت له تلك الملكة وذلك الأنس يطمئن بأنَّ هذا الدعاء صادر منهم. وما أجود ما قال بعض علمائنا الأعلام: إنَّنا كثيراً ما نُصحِّح الأسانيد بالمتون.

ولهذا الدُّعاء أكثر من خصوصيَّة، قبل أنْ أستعرضها من المناسب أنْ أُثير السُّؤال التالي: في أيِّ سَنَة دعا الإمام الحسين (ع) بهذا الدُّعاء الذي يرويه لنا بشر وبشير ابنا غالب الأسَدي؟





الجواب: من ملاحظةِ قرائن كثيرة - منها التفافُ النَّاس حولَ الإمام الحسين (ع) كما يظهَر من رواية الدُّعاء - يمكن القول بأنَّه (ع) دعا بهذا الدُّعاء، بعد شهادةِ أخيه الإمام الحسن (ع) سنة ٥٠ هج، وقبل سنة ٦٠ هج. لأنَّه خرَجَ من مكة إلى كربلاء يوم التَّروية – وهو قبْل يوم عرَفة بيومٍ واحد - سنة ٦٠ هج، واستشهد في محرم ٦١ هج.

أما خصوصيَّات هذا الدُّعاء، التي امتازَ بها عن غيرهِ من الأدعية، فيمكن إيجازُها بما يلي:

١. **خصوصيَّة الزَّمان:** فقد دعا الإمام الحسين (ع) بهذا الدُّعاء في أيَّامِ الحج.

يقولُ تعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ" (البقرة، ١٩٧). وقد بيَّنت السُّنة أشهُر الحج، وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجَّة.

ويقولُ تعالى: "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ" (التوبة، ٣٦). والأشهُر الحُرُم هي: ذو القعدة وذو الحجَّة ومحرَّم ورجَب.

لذا يمكن القول بأنَّ لذي القعدة وذي الحجَّة ميزَتان: الأولى أنَّهُما من أشهُرِ الحج، والثانية أنَّهُما من الأشهر الحُرُم. وهاتان الميزتان لا تجتمعان إلا في هذَين الشَّهرَين. فشوال من أشهُر الحج، لكن ليس من الأشهُر الحُرُم. ومحرَّم ورجَب من الأشهُر الحرم، لكن ليسا من أشهُر الحج.

وللأيامِ العشرة الأولى من ذي الحجة ولياليها خصوصيَّة إضافية، فقد أقسمَ اللهُ عزَّ وجل بها في قولِه تعالى: "والفَجْر، وليالٍ عَشْر" (الفجر، ١-٢)، والمرادُ بالليالي



العشر - على التفسير المشهور - أول ذي الحجة إلى عاشرِها، والتنكير للتفخيم. وفي تفسير القُمِّي "وليالٍ عَشْر" قال: عشر ذي الحجَّة.

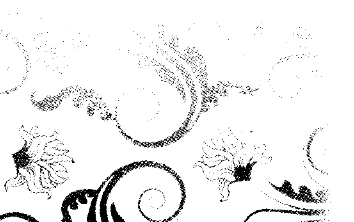
٢. **خصوصيَّة المكان:** فقد دعا الإمام الحسين (ع) بهذا الدُّعاء في عرفة.

تقَع عرَفات في الحِلّ لا في الحرَم، يحيطُ بميدانه سلسلة من الجبالِ الشامخة تشبه الدائرة، ويقع على شمالِه جبلُ الرَّحمة، وفي أسفلِ جبل الرَّحمة مسجد الصَّخرات. وحدُّهُ من بطن عُرنَة وثوية ونمرة وذي المجاز، وخلفُ الجبَل موقفٌ إلى ما وراءِ الجبَل. ويبعُد عن مكة – شرقيها – بحوالي اثنين وعشرين كيلو متراً.

روي عن أبي عبد الله (ع) أنَّهُ قال: عرفات كلُّها موقِف.

وقد اختلَفَت كلماتُ الرِّوايات والنُّصوص في سبَبِ تسمية عرَفات بهذا الإسم إلى ثلاثةِ أسباب: الأول تعارُف آدم وحواء بها بعدَ نزولِهما من الجنة. الثاني تعارُف الحجيج مع بعضِهُم البعض في هذا الموضع. والثالث قول جبرئيل لإبراهيم (ع) فيه: اعتَرِف بذَنْبكَ واعرِف مناسِكَكَ. والرأيُّ الأرجح هو هذا الأخير. وبالتالي عرفات تأتي من الاعترافِ والمعرفة؛ الاعترافُ بالذَّنْبِ ومعرفةُ المناسِك.

والوقوفُ بعرَفة ركنٌ في الحجِّ، يبطُل بتركِهِ عَمْداً. ويجبُ الوقوف على الحاجِّ من زوالِ الشَّمس من يومِ عرفة إلى غروبِها اختياراً، ويمتدُّ وقت الوقوف إلى طلوعِ الفَجْر من يومِ العيد اضطراراً. والمرادُ بالوقوفِ بعرفة الكونُ فيها، سواء كانَ الحاجُّ نائماً أم مستيقظاً، وقاعداً كانَ أم قائماً، وراكباً كانَ أم ماشياً. والمشهور استحبابُ الوقوف في الميسرةِ من سَفْح الجبل، ولا يرتفِع إلى الجبلِ إلا عندَ الضرورةِ إلى ذلك.





ورُويَ في مستدركِ الوسائل عن أميرِ المؤمنين (ع) أنَّ رسولَ الله (ص) لما حجَّ حَجَّةَ الوداع، وقفَ بعرفة، فأقبَلَ على النَّاسِ بوجهِهِ، وقال: مرحباً بوفْدِ الله — ثلاث مرَّات — الذينَ إنْ سألوا أُعطُوا، وتُخلَف نفقاتُهم، ويُجعَل لهم في الآخرةِ بكُلِّ درهم ألف من الحسنات، ثم قال: يا أيُّها النَّاس ألا أُبَشِّرُكُم؟

قالوا: بلى يا رسولَ الله.

قال (ص): إنَّه إذا كانت هذهِ العشيَّة باهى اللهُ بأهلِ هذا الموقف الملائكة، فيقول: يا ملائكتي انظُرُوا إلى عبيدي وإمائي، أَتَوْني من أطرافِ الأرض، شُعْثاً غُبْراً، هل تعلمونَ ما يسألون؟ فيقولون: ربَّنا يسألونَكَ المغفرة، فيقول: أُشْهِدُكُم أنِّي قد غفَرْتُ لهم، فانصَرِفوا من موقِفِكُم مغفوراً لكُم ما سلَف.

٣. **خصوصيَّة الدَّاعي:** فالدَّاعي بهذا الدُّعاء هو الإمام الحسين (ع). ولهذا الإمام خصوصيَّة استثنائية، يعجَزُ القلَمُ عن بيانِها.

هو الحسينُ بن عليُ بن أبي أبي طالب (ع)، أمُّهُ فاطمة الزَّهراء بنت محمد (ص)، وُلِدَ في المدينة في ٣ شعبان ٤ هج، واستُشْهِدَ في كربلاء في ١٠ محرم ٦١ هج.

رواية الدُّعاء تقول بأنَّ الإمام الحسين (ع) في آخرِ دُعائِه "كانَ يُكرِّر قوله "يا ربُّ"، وشغَلَ من حضَر ممَّن كانَ حوله عن الدُّعاءِ لأنفُسِهم، وأقبلوا على الاستماعِ له، والتأمين على دُعائِهِ، ثمَّ علَتْ أصواتُهُم بالبُكاءِ معَهُ، وغربَت الشَّمْسُ، وأفاضَ الناسُ معه".

إذا أرَدْنا أنْ نُفسِّر التفافَ النَّاس حول هذا الإمام (ع) على النَّحوِ المذكور في رواية الدُّعاء، يمكنُ القول أنَّ ذلك يكمُنُ في اجتماعِ عدَّة ميِّزات له، لم تجتمع لأحدٍ غيرَهُ.



- أنَّهُ "صحابيٌّ": بالمعنى الواسعِ لهذا المصطلح، والذي يشمَل كلّ من رأى رسول الله (ص) وإنْ لم يبلُغ الحُلُم.

- أنَّهُ "إمامٌ": بمنطقِ الإمامة الذي نُؤمِن بهِ وكانَ يُؤمن بهِ الخواص آنذاك.

- أنَّهُ "آخرُ إمام صحابي": لأنَّ الأئمة (ع) من بعدِهِ وُلِدُوا بعدَ وفاةِ رسول الله (ص).

- أنَّهُ "آخِر ابن بنْت لرسولِ الله": بعدَ شهادة أخيهِ الإمام الحسَن (ع). فهو الحفيد الوحيد لرسولِ الله (ص) المتبقّي على قيدِ الحياة.

- أنَّهُ "ابنُ فاطمة وعليّ": وإلا، كانَ لعليٍّ (ع) غيرَهُ من الأبناء، لكن من غير فاطمة (ع)، كمُحمَّد من خولَة الحنفيَّة، والعباس وإخوانه الثلاثة - الذين استُشْهِدوا مع الحسينِ (ع) - من أُمِّ البنين.

لذا تجِد الإمام الحسين (ع) يومَ العاشر من المحرَّم، يُخاطِب جيش عمر بن سعد مُذكِّراً، ومنادياً بأعلى صوته: أُنْشِدُكم الله، هل تعرفونني؟

قالوا: نعم، أنتَ ابنُ رسولِ الله (ص) وسبطُهُ.

قال: أُنشِدُكم الله هل تعلمونَ أنَّ جدِّي رسولَ الله (ص)؟

قالوا: اللهمَّ نعم



قال (ع): أُنْشِدُكم الله هل تعلمونَ أنَّ أُمِّي فاطِمة بنت محمَّد (ص)؟

قالوا: اللهمَّ نعم

قال (ع): أُنْشِدُكم الله هل تعلمونَ أنَّ أبي عليَّ بن أبي طالب (ع)؟

قالوا: اللهمَّ نعم

قال: أُنْشِدُكم الله هل تعلمونَ أنَّ جدَّتي خديجة بنت خويلِد أوَّلُ نساء هذهِ الأمة إسلاماً؟

قالوا: اللهمَّ نعم..........

قال (ع): فبِمَ تستَحِلُّونَ دَمِي....؟

قالوا: قد عَلِمْنا ذلكَ كلّه، ونحنُ غير تاركيكَ حتى تذُوقَ الموْتَ عطَشاً!!

- أنَّهُ "خامِسُ وآخِر من بقيَ حيَّاً من أصحابِ الكِسَاء": ممن نزَلَ بحقِّه آية التَّطهير، في قوله تعالى: "إنَّما يريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكمُ الرجسَ أهلَ البيتِ ويطهِّرَكُم تطهيراً" (الأحزاب، ٣٣)، وفقاً لرِواية أم سلَمة التي حدَّثتنا عن محاولتِها الدُّخول تحتَ الكِساء ورَفْض رسول الله (ص) ذلِك.



• أَنَّهُ "آخر المشمولين بسورةِ الإنسان (= الدَّهْر)": التي تتضمَّن شَرْحاً وافياً لأشكالِ وصُنوفِ نعيم الجنة التي سيحظى بها مـــن قـــالَ اللهُ في حقِّـــه: "ويُطْعمونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسْكيناً ويَتيماً وأسيراً، إنَّما نُطْعِمُكُم لوَجْـــهِ اللهِ لا نريدُ منكُم جَزاءً ولا شُكوراً، إنَّا نخافُ من ربِّنـــا يومـــاً عَبوســـاً قمطريراً، فوقاهُمُ اللهُ شرَّ ذلكَ اليومِ ولقَّاهُم نَضْرَةً وسُروراً، وجزاهُم بمـــا صبَروا جنةً وحريراً" (الإنسان، ٨-١٢).

• أَنَّهُ "آخر من باهَلَ بهِ رسول الله (ص) نصارى نجران": كما جاءَ في قولهِ تعالى: "فمن حاجَّكَ فيهِ منْ بعدِ ما جاءَكَ من العلْمِ فقُلْ تعالَوا ندْعُ أبناءَنا (هنا الحسين عليه السلام مقصود مباشرة) وأبناءَكُم ونـــساءَنا ونـــساءَكُم وأنفُسَنا وأنفُسَكُم ثم نَبْتَهِل فنَجْعَل لعنةَ اللهِ على الكاذِبين" (آل عمـــران، ٦١).

• أَنَّهُ "كان مورد اهتمام مُباشِر ودلال خاص من جدِّهِ رســـول الله (ص)": كتركه (ص) للحسين (ع) يصعَد على ظهرِهِ عندَ سُجُودِهِ، وقطعه (ص) للخُطْبة عندَ بُكائِهِ (ع). وقد وردَت سلسلة من الأحاديث النبَويَّة خاصَّة في حقِّه؛ مثل "حسينٌ مني وأنا من حسين، أحبَّ اللهُ من أحبَّ حـــسيناً"، ووردت في حقِّهِ مع أخيهِ الحسن (ع) روايات؛ كـــ "الحسنُ والحـــسينُ سيدا شباب أهل الجنة".

• أَنَّهُ "سيد بني هاشم": بمنطقِ القبيلة السَّائد آنذاك، ولا يُنازعـــهُ في ذلـــكَ أحد. فمع أنَّ ابنَ عباس أكبرَ منهُ سنَّاً (الحسين عليه السَّلام آنذاك كانَ في العقْدِ الخامس من عُمُرِهِ الشريف)، إلا أَنَّهُ لم يجرؤ على منافسةِ الحـــسين

(ع). ومن باب أولى أخوهُ الأصغر محمد بن الحنفية، الذي لم يكن حفيداً لرسولِ الله (ص).

- أنَّهُ "المرشَّح الأوَّل لخِلافة معاوية": فرَغْم محاولات معاويــة في الــسَّنَوات الدائرة بين ٥٠ – ٥٩ هج توريث السُّلطة ليزيد بالترغيبِ والترهيب، إلا أنَّ الإمام الحسين (ع) بقي المرشَّح الأوَّل لخلافةِ معاوية. وذلــكَ لفــسْق وفجور يزيد، وعدَم كونه صحابياً أصْلاً. وهذا الوَضْع، أوجــدَ تناقُــضاً صارخاً وواضحاً عند النَّاس، بينَ الخليفة المفروض عليهم فَرْضاً، والخليفــة الذي يَرْغَبُونَ بهِ. نعم، الآخَر الذي كانَ يطمَح لمنافسةِ الإمــام الحــسين (ع)، كانَ عبد الله بن الزُّبير. لكنَّهُ كانَ يعلَم أنَّ ما يمتَلكهُ الإمام الحــسين (ع) من رصيدٍ في قلوب الناس لا يُمكِّنه من أنْ يُنافسهُ عليــه. مــضافاً لكونِ الإمام الحسين (ع) هو المرشَّح الأوَّل للخلافة بمقتضى صُلْح الإمــام الحسن (ع).

هذا كلُّهُ، ناهيك عن الميزات التي امتازَ بها الإمام الحسين (ع) في أخلاقِه وعبادته وزهدِهِ وتقواه... كلُّ هذا جعلَهُ يمتلِك في قلوبِ المسلمين رصيداً شــعبياً كــبيراً. وهذا واضح تماماً في رواية الدُّعاء، التي تتحدَّث عن التفافِ الحُجَّــاج - الــذين يأتُونَ عادَةً من نقاط متفرِّقة من أقطار العالَم الإسلامي – حول الإمام الحــسين (ع).

وحبُّ النَّاس للإمام الحسين (ع) آنذاك، تلمَسْهُ بوضوح في الرِّوِيات التاريخية التي تتحدَّث عن التفافِ أهل مكة حولَهُ، عندما دخلَها (ع) بعد موتِ معاوية. فقــد ذكرَ أصحابُ التَّواريخ أنَّ الحسينَ (ع) حينما دخَلَ مكة سنة ٦٠ هج قادماً من



المدينة، "فرِحَ بهِ أهلُها فرحاً شديداً...وجعلوا يختلفونَ إليه بُكرةً وعشيةً، واشــتدَّ ذلكَ على عبد الله بن الزُّبير، لأَنَّهُ كانَ قد طَمعَ أن يُبايعهُ أهلُ مكة، فلمــا قــدِمَ الحسين، شقَّ ذلكَ عليهِ، غير أنهُ لا يُبدي ما في قلبهِ إلى الحسين، يختلــفُ إليــه ويُصَلِّي بصلاتهِ ويقعُدَ عندَهُ، ويسمَعُ من حديثِهِ، وهو مع ذلكَ يعلَم أنهُ لا يُبايعهُ أحدٌ من أهلِ مكة والحسيُن بنُ علي فيها، لأنَّ الحسينَ عندَهُم أعظَمُ في أنفُــسِهِم من ابنِ الزُّبير".

٤. **خصوصيَّة الدُّعاء:** فهذا الدُّعاء ينطوي على مضامين عالية، وعبارات دقيقة ومعبِّرة لا نجِد لها مثيلاً في أدعيةٍ أُخرى.

فهذا الدُّعاء، يدْفَعُ الإنسانَ لاستعراض وتأمُّل نعَمَ الله عزَّ وجل. تلكَ النِّعَم التي رافقَتْهُ في كلِّ مراحل وجوده، كشريط سينمائي، يبدأ قبلَ تكوُّنه، ثم يمرُّ إلى مرحلةِ الأصلاب فالأرحام، ثمَّ دخوله إلى هذا العالَم، بدءاً من الرَّضاع، فالطفولة المبكرة والمتأخِّرة، ثم البُلُوغ، إلى اللَّحظة التي يُخاطَب فيها الله سبحانَهُ بهذا الدُّعاء؟

وفي هذا الدُّعاء، يُقرُّ الإنسانُ بعجزهِ عن شُكْرِ نعَمِ الله عزَّ وجل. لا بلِسانِهِ فحسب، بل بكُلِّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِ جسَدِهِ. ابتداءً من رأسِهِ، بأجزائِهِ، ووَجهه وحواسِّه. نزولاً إلى العُروقِ التي تحمِل رأسَهُ، ثمَّ قلْبه وصَدْره وحواشي كبِده وشراسيف أضلاعه. وانتهاءً بجوارحه وأنامله وعواملِهِ، ولحمِهِ ودمِهِ وشعرِهِ وبشَرِهِ وعصَبِهِ وقصَبِهِ وعِظامه....إلخ. عندما يقرأ الدَّاعي هذهِ العبارات يشعُر أنَّ أعضاءَ جسَدِهِ وكلّ جوارحه تكاد تنطُق وتُقر – مع لسانِهِ - بالعجزِ عن شُكْرِ نِعَمِ الله عليه.



وهذا الدُّعاء، يُرسِّخ أيضاً في وجدان الدَّاعي الأدَب الربَّاني – بل الحقيقة القاطعة – بنسبةِ كلّ حسنة إلى الله (عندما يُكرِّر: أنتَ الذي..أنتَ الذي)، ونِسبة كلّ سيئة إلى نفسِهِ (عندما يُكرِّر: أنا الذي...أنا الذي).

ثم ينتهي هذا الدّعاء بالدَّاعي إلى إيجاز حاجاته بحاجةٍ واحدة، إنْ أعطاها الله لَهُ لم يضُرُّهُ ما منَعَهُ، وإنْ منَعَهُ لم يَنْفَعهُ ما أعطاه!

أثناء شرْح هذا الدُّعاء، تكشَّفَ لي بكلّ وضوح، أنَّ القرآنَ الكريم قد عُجِنَ بعَقْل ووجدان وقَلْب الإمام الحسين (ع). والدَّليل هو ما ستَجِدُهُ من حضور لعبارات ومفاهيم القرآن في أجزاءِ الدُّعاء....إلى درجةٍ قد يُقال معها أنَّ هذا الدُّعاء كأنَّهُ قرآنٌ أُعيدَ صياغَتُهُ على هيئةِ دُعاء.

أردْتُ في هذا الشَّرح أنْ أُساعِد القارئ على فهمِ المعاني، لأنِّي – في حدود إطّلاعي – لم أجِد شَرْحاً متداولاً لهذا الدُّعاء. ورغم أنَّ القارئ قد يشعُر أنَّ بعض الكلمات المشروحة ليست بحاجةٍ إلى شرْحٍ لوضوحها، إلا أنَّه عندما يُدَقّق في أصلِ معناها اللُّغوي قد تتكشَّف لهُ جوانب تزيد من فهمِهِ للدُّعاء.

ولا بد أن تُفهم بعض الكلمات التي يعترف فيها الإمام الحسين (ع) بالسَّيئة والمعصية والذنب في إطار "حسنات الأبرار سيئات المقربين"، تماماً كالكلمات التي توحي بشيء من هذا القبيل الواردة في القرآن الكريم عن الأنبياء (ع)، لأنَّنا نؤمن بعصمة الإمام الحسين (ع) كما نؤمن بعصمة الأنبياء (ع)

<u>بقي شيءٌ:</u>

يتعلّق بالزِّيادة المنسوبة إلى الإمامِ الحسين (ع)، والتي تبدأ من عبارة "إلهي أنا الفقيرُ في غِناي، فكيفَ لا أكونُ فقيراً في فقري..."، إلى آخر الدُّعاء. هذهِ



الزِّيادة – هي على الأرجح – ليست للإمام الحسين (ع)، وإنما لمتصوِّفٍ يُعرَف بـ أحمد بن محمد بن عبد الكريم الشهير بابن عطاء السَّكندري المالكي (٦٥٨-٧٠٩ هج). وبإمكانكَ أنْ تجِد هذهِ الزِّيادة مُلحَقة بكتابِ السَّكندري المعروف بـ "الحِكَم العطائية".

هذه الزِّيادة نُسبَت للإمام الحسين (ع)، ومصدَر هذه النِّسبة بعض النُّسخ الحديثة لكتاب "الإقبال" للسَّيد ابن طاووس، ومنها أخذَ المحدِّث الشيخ عبَّاس القُمِّي في "مفاتيح الجنان".

لذا تجِد الشيخ القُمِّي يُنبِّه بعدَ أنْ يصِل إلى العبارة "أنتَ على كلِّ شيءٍ قدير، يا ربِّ يا ربِّ": وكانَ يُكرِّر قولُهُ (يارب)، وشغلَ من حضَر ممن كانَ حولهُ عن الدُّعاءِ لأنفُسِهم، وأقبَلوا على الاستماعِ لهُ والتأمين على دُعائه، ثمَّ علَت أصواتُهُم بالبُكاءِ معَهُ، وغربَت الشَّمس وأفاضَ الناسُ معَهُ. ويقول: إلى هُنا تمَّ دُعاء الحسين (ع) في يوم عرفة، على ما أوردَه الكفعمي في كتاب "البلد الامين"، وقد تبعَهُ المجلسي في كتاب "زاد المعاد"،[٢] ولكن زادَ السَّيد ابن طاووس (رحمه الله) في "الإقبال" بعد "يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبّ" هذه الزّيادة"....ثم يذكُر الزِّيادة.

والسُّؤال الذي يهُمُّنا هو التالي: طالما لا نجِد هذهِ الزِّيادة في كتابِ "البلَد الأمين" للكفعمي، و"زادِ المعاد" للمجلسي، بل نجِدُها في كتابِ "الإقبال" للسِّيد ابن طاووس فقط، فمن الذي دسَّ هذهِ الزِّيادة؟ هل السِّيد ابن طاووس مؤلِّف كتاب "الإقبال"؟ أم بعض نُسَّاخ كتابِ "الإقبال"؟

نكاد نجزم بأنَّ بعض النُسَّاخ هُم من أضافَ هذهِ الزِّيادة في كتابِ "الإقبال" للسِّيد ابن طاووس، لعدَّةِ اعتبارات:

---

[٢] لعدم قناعة المجلسي بأنَّ هذه الزِّيادة للإمام الحسين (ع)، كما سنرى بعد قليل.

١. أنَّ للسيِّد ابن طاووس كتاباً آخر اسمُهُ "مصباح الزَّائر"، روى فيهِ دُعاء الإمام الحسين (ع) في يومِ عرفة، دون هذهِ الزِّيادة.

٢. أنَّ النُّسخ القديمة لكتابِ "الإقبال" لا توجَد فيها هذهِ الزِّيادة، وإنَّما توجد في النُّسَخ الجديدة فقط، كما سيذكر المجلسي.

٣. أنَّ العبارات التي تتضمَّنها الزِّيادة لا تنسجِم مع روح الدُّعاء الأساسي، ويكثُر فيها المصطلحات والمفاهيم المتداولة عند المتصوِّفة.

٤. أنَّ بعض المفاهيم والقناعات الموجودة في هذهِ الزِّيادة تجِدها حاضرة في أدبيات ابن عطاء السَّكندري. خُذْ على سبيلِ المثال، عندما يُردِّد "إلهي اغنني بتدبيرك عن تدبيري"، ثمَّ تعرِف أنَّهُ كتبَ كتاباً بعنوان "التنوير في إسقاطِ التدبير"، يدعو فيهِ إلى أنْ يترُك العبد تدبير شأنه، ويكِلُ ذلِكَ إلى ربِّه.

٥. حركة السيِّد ابن طاووس كانت محصورة – على ما يبدو - بين العراق وإيران، وحركة السَّكندري كانت محصورة – على ما يبدو - في مصر. والسيد ابن طاووس وُلِدَ سنة ٥٨٩ هج وتوفي سنة ٦٦٤ هج، في حين أنَّ ابن عطاء السَّكندري وُلِدَ سنة ٦٥٨ هج وتوفي سنة ٧٠٩ هج، وهذا يعني أنَّ الرَّجلين وإنْ كانا في عصرٍ واحدٍ تقريباً، إلا أنَّ السَّكندري عندما

وُلد كانَ عُمْر السِّيد ابن طاووس ٦٩ سنة، وعندما تُوفّي السيِّد ابن طاووس كان عُمْر السَّكندري ٦ سنوات فقط، وظلاًّ متباعدين في المكان. نستنتج من ذلك، أنَّ القول بأنَّ السِّيد ابن طاووس قد أخذَ – بنفسِهِ – هذه الزِّيادةِ من السَّكندري، لا يمكن القبول به.

إذن يدورُ الأمرُ حينئذٍ بين احتمالين: أنْ يكون السَّكندري هو الذي أخذَ هذه الزِّيادة من الإمامِ الحسين (ع) من بعضِ كُتُب الأدعية القديمة، ثُمَّ نُسِبَت إليهِ، أو أنَّ بعض نُسَّاخ كتاب "الإقبال" أخذوا هذهِ الزِّيادة من السَّكندري – أو من غيرِهِ – ثمَّ دسُّوها، اشتباهاً أو عَمداً، فنُسِبَتْ بعد ذلك اشتباهاً إلى الإمامِ الحسين (ع). وهذا الاحتمال هو الأرجح، للاعتبارات السَّابقة، وأهمُّها أنَّ النسخ القديمة من كتابِ "الإقبال" لا توجد فيها الزِّيادة.

لذا، كانت شُكُوك المجلسي – بشأن الزِّيادة - في محلِّها عندما كتبَ قائلاً:

"وقال الكفعميّ في حاشيةِ "البلدِ الامين" المذكور على أوَّل هذا الدُّعاء: وذكر السيِّد الحسيب النَّسيب رضي الدين علي بن طاووس قدَّسَ الله روحَهُ في كتاب "مصباح الزائر" قال: روى بِشر وبشير الأسَدِيَّان أنَّ الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) خرَجَ عشية عرفة يومئذٍ من فسطاطهِ متذلِّلاً خاشِعاً فجعلَ (ع) يمشى هوْناً هوْناً حتى وقفَ هوَ وجماعة من أهل بيته وولده ومواليه في ميسرةِ الجبل، مستقبل البيت، ثم رفعَ يديه تِلقاء وجهه كاستطعام المسكين، ثم قال: "الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لِقَضَائِهِ دَافِعٌ".[٣]

[٣] المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٥، ص٢١٤.



ثم قال المجلسي: "أقول: قد أورَدَ الكفعمي – ره – أيضاً هذا الدُّعاء في "البلد الأمين"، وابن طاوس في "مصباح الزائر"، كما سبَقَ ذِكرُهُما، ولكن ليسَ في آخرهِ فيهما بقدرِ ورَق تقريباً، وهو من قولهِ: "إلَهِي، أَنَا الفَقِيرُ فِي غِنَايَ" إلى آخرِ هذا الدُّعاء. وكذا لم يوجَد هذهِ الورقة في بعض النُّسخ العتيقة من "الإقبال" أيضاً. وعبارات هذه الورَقة لا تُلائم سياق أدعية السَّادة المعصومين أيضاً، وإنما هي على وفق مذَاق الصُّوفية، ولذلك قد مالَ بعضُ الأفاضل إلى كون هذه الورَقة من مزيدات بعض مشايخ الصُّوفية ومن إلحاقاتهِ وإدخالاتهِ.

وبالجملة هذه الزِّيادة، إما وقعَت من بعضِهم أولاً في بعضِ الكُتُب وأخذَ ابنُ طاووس عنهُ في "الإقبال" غفلةً عن حقيقةِ الحال، أو وقعَت ثانياً من بعضِهم في نفسِ كتاب "الإقبال". ولعلَّ الثَّاني أظهَر على ما أومأنا إليهِ من عدم وجدانها في بعض النُّسخ العتيقة و"مصباح الزائر". واللهُ أعلم بحقائق الأحوال".[٤]

وبالفعل الاحتمال الثاني – الذي ذكرَهُ المجلسي – هو الأرجح، لأنَّ القول بأنَّ السيد ابن طاووس أخَذَ عن السَّكندري لا يمكن القبول به، بلحاظ أن السيِّد ابن طاووس عندما تُوفِّي، كان عُمْر السَّكندري ٦ سنوات فقط.

وقد اعترفَ بعض المحقِّقين بنسبةِ هذهِ الزِّيادة إلى ابن عطاء السَّكندري، كالمرحوم العلامة السيِّد محمد حسين الحسيني الطِّهراني، في كتابهِ "معرفة الله"،

[٤] المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٥، ص٢٢٧-٢٢٨.



حيث قامَ بشرح بعض عبارات الزِّيادة، تحت عنوان: "شرح مناجاة ابن عطاء الله الإسكندري".

لابد من الإشارةِ هنا، إلى أنَّني كُنْتُ في حيرةٍ بينَ أمرين: الأول أنْ أحذِف الزِّيادة، ولا أعتني بشرحِها، طالما أنَّها ليست للإمام الحسين (ع) على الأرجح. والأمر الثاني أنْ أترُك الزِّيادة في مكانِها، مع التنبيه إلى أنَّها منسوبة للإمام الحسين (ع)، وأشَرْحَها كبقيةِ أجزاء الدُّعاء. ورجَّحتُ في النِّهاية الخيار الثاني. مع الإشارة إلى استعانتي في شرح الزِّيادة بما كتبَهُ الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابِهِ "الحِكم العطائية: شرحٌ وتحليل"، حيث شرَحَ الزِّيادة في آخرِ الكتاب، بعد أنْ شرحَ حِكَم ابن عطاء السَّكندري.

أسألُ اللهَ سبحانَهُ أنْ يتقبَّل هذا القليل بأحسَنِ القَبُول، وأنْ ينفعني بهِ يومَ لا ينفَعُ مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليم.

مرتضى فرج

رجب ١٤٣٣ هجرية

الكويت



دعاء الإمام الحسين (ع) يوم عرفة

كتبَ الشيخ عبَّاس القُمِّي – رحمَهُ الله – في مفاتيحِ الجِنَان، ضمن أعمال يوم عرفة:

ومن دعوات هذا اليوم المشهورات دعاء سيد الشهداء (ع). روى بشرٌ وبشير ابنا غالب الأسدي قالا: *كُنّا مع الحسينِ بن علي (ع) عشيّةَ عَرَفة، فخرجَ (ع) من فُسطاطه*[٥] *متذلّلاً*[٦] *خاشعاً*[٧] *فجعلَ يمشي هوناً هوناً*[٨] *حتّى وقفَ هو وجماعةٌ من أهلِ بيتهِ وولدِه ومواليه في ميسرةِ الجبل مستقبلَ البيت، ثمّ رفعَ يديهِ تلقاءَ وجهِه كاستطعامِ المسكين،*[٩] *ثمّ قال:*

---

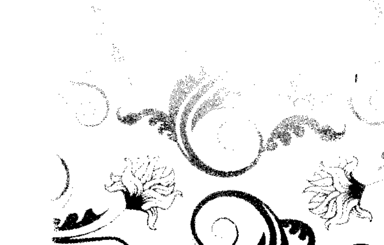
[٥] الفُسْطاط: بيتٌ يُتَّخذُ من الشَّعْر.

[٦] المتذلّل: في حالةِ خضوع وانكسار.

[٧] الخاشِع: الخافِض صوتَهُ وبصرَهُ. ويُقالُ للبدَن أنَّهُ خاضِع، وللصوتِ والبصَر أنَّهُ خاشِع.

[٨] مشى هوناً: بالسَّكينةِ والوقار.

[٩] كاستطعام المسكين: كما يمُدُّ المسكين يدَهُ طلباً للحاجة.





اَلْحَمْدُ للهِ[١٠] الَّذى لَيْسَ لِقَضائِه دافِعٌ[١١]، وَلا لِعَطائِه مانِعٌ[١٢]، وَلا كَصُنْعِه صُنْعُ صانِعٍ[١٣]، وَهُوَ الْجَوادُ الْواسِعُ[١٤]، فَطَرَ أَجْناسَ الْبَدائِعِ[١٥]، وأَتْقَنَ بِحِكْمَتِه الصَّنائِعَ[١٦]، لا تَخْفى عَلَيْهِ الطَّلائِعُ[١٧]، وَلا تَضيعُ عِنْدَهُ الْوَدائِعُ[١٨]، جازي كُلِّ

---

[١٠] لتوضيح معنى "الحمْد"، من المفيد أنْ نُقارنه مع المدْح والشُّكر. المدْحُ هو الثناءُ بشكلٍ عام، سواء كان لأمرٍ اختياري أو غير اختياري، كمَدْح جوهرة جميلة. والشُّكر هو ما نُبديه تجاهَ نعمة أنعمَها علينا مُنعمٌ باختيارِه. أما الحمْدُ فيُستعمل عند اجتماع الموردَين معاً؛ فعندما نكون أمامَ شيءٍ يستوجِبُ المدْحَ لجمالِه أو جَلالِه، وفي نفسِ الوقت يستوجِبُ الشُّكر لما وصَلَنا منهُ من خيرٍ ونعمة، فهُنا نقومُ بحمدِه.

[١١] الحمْدُ لله الذي لا يحولُ دون نفوذ قضاءِه حائل، ولا يقِف في طريقِ سريان حُكْمه عائِق، ولا يُعطِّل تنفيذ أوامرِه مُعطِّل، "إذا قضى أمراً فإنَّما يقولُ لهُ كُن فيَكون" (مريم، ٣٥).

[١٢] الحمْدُ لله الذي ليس لمعروفِهِ وكَرَمِهِ مانعٌ يحولُ دونَ وصولِه إلى مُتلَقِّيه، "ما يفتَح اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا مُمسِك لها" (فاطر، ٢)، "وإنْ يُرِدكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلِه" (يونس، ١٠٧).

[١٣] الحمْدُ للهِ الذي لا يُقاسُ صُنْعهُ وخَلْقهُ بصُنْعِ وخَلْقِ غيرِه "تبارَكَ اللهُ أحسَنُ الخالقين" (المؤمنون، ١٤).

[١٤] واللهُ سبحانَهُ ذو السَّخاء الواسِع.

[١٥] وهو تعالى إبتدأ خَلْق ضُروب وصُنوف المخلوقات المختَرَعَة لا على مِثال.

[١٦] وهو تعالى أتقَنَ وأحكَمَ بعلمِهِ صُنع المخلوقات.

[١٧] الطلائع: هم القوم الذين يُبعثون ليطَّلِعوا طِلْعَ العدو كالجواسيس. فهؤلاء إنْ خفُوا عن العدو، فإنَّهم لا يخفُون عن اللهِ عزَّ وجل، الذي "لا يخفى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماء" (آل عمران، ٥).

[١٨] "ودائع" جمع "وديعة"، فعندَ اللهِ سبحانَهُ لا تضيعُ الودائع إذا استودَعَها العبدُ، وقد تكون الودائع أعمال صالحة، لأنَّها ستبقى محفوظة له بعد الموت، فـــ"الباقياتُ الصَّالحات خيرٌ عندَ ربِّكَ ثواباً وخيرٌ أملاً" (الكهف، ٤٦). وقد تكون الودائع زوجة وأبناء إذا

صانعٍ[19]، وَرائِشُ كُلِّ قانعٍ[20]، وَراحِمُ كُلِّ ضارِعٍ[21]، وَمُنْزِلُ الْمَنافِعِ وَالْكِتابِ الْجامِعِ[22]، بِالنُّورِ السَّاطِعِ[23]، وَهُوَ لِلدَّعَواتِ سامِعٌ[24]، وَلِلْكُرُباتِ دافِعٌ[25]،

استودعوا عند السَّفَر، كما فعلَ إبراهيم (ع) عندما استودَعَ ذُرِّيَّتَهُ داعياً الله سبحانَهُ "رَبَّنا إني أسكنتُ من ذُرِّيتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عندَ بيتِكَ المحرَّم ربَّنا ليُقيموا الصلاةَ فاجعل أفئدةً من الناسِ تهوي إليهم وارزُقْهُم من الثَّمراتِ لعلَّهم يشكُرون" (إبراهيم، ٣٧)، وكان الإمام علي (ع) إذا خرجَ في سفرٍ يقول: "اللهم أنتَ الصاحِبُ في السَّفر والخليفةُ في الأهل". وقد تكون الودائع النُّطف المستودَعة في أصلابِ الرِّجال وأرحامِ النِّساء، وفي قِبالِها الذي وُلِدَ واستقرَّ في الأرض، كما قيل في تفسيرِ قوله: "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ" (الأنعام، ٩٨). فاللهُ عزَّ وجل لا تضيع عندَهُ الودائع، حيثُ تكفَّل بالحفاظ عليها وتربيتِها وتوفير رزقِها.

[19] فهو تعالى الذي يُجازي ويُكافئ كلَّ عاملٍ من ذكرٍ أو أنثى، يقول تعالى: "وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا" (النساء، ١٢٤).

[20] وهو تعالى الذي يجودُ بالمالِ والخصب والمعاش واللِّباس على كلِّ إنسانٍ قانع برزقِهِ وحظِّهِ في الدُّنيا.

[21] وهو سبحانَهُ الذي يَرْحَم كلَّ مُتضرِّعٍ ومُبتهِلٍ إليه تعالى في ذُلٍّ وخضوع.

[22] وهو سبحانَهُ مُنزِلُ المنافع على خلقِه، كالأنعام "خلقَها لكُم فيها دِفْءٌ ومنافع ومنها تأكلون" (النحل، ٥)، والحديد "فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس" (الحديد، ٢٥)، وموسِمُ الحجِّ بكُلِّ فوائدهِ المادِّية والمعنوية "لِيَشْهَدوا منافعَ لهم ويذكُروا اسمَ اللهِ في أيامٍ معلومات" (الحج، ٢٨). كما أنَّهُ تعالى منزل القرآن الكريم الجامع تفصيلاً لكلِّ شيء.

[23] فاللهُ سبحانَهُ أنزلَ القرآنَ كنور ساطع يرى العبدُ من خلاله طريقَهُ نحوَ الله سبحانَهُ "يا أيُّها الناسُ قد جاءَكُم بُرهانٌ من ربِّكُم وأنزلنا إليكُم نوراً مُبيناً" (النساء، ١٧٤)، واللهُ سبحانَهُ وتعالى هو الذي جعلَ هذه الخاصِّية للقرآن الكريم "ما كُنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناهُ نوراً" (الشورى، ٥٢). والنورُ - كما هو معروف - هو الشيء



وَللدَّرَجاتِ رافِعٌ[٢٦]، وَللْجَبابِرَةِ قامِعٌ[٢٧]، فَلا إلَهَ غَيْرُهُ، وَلا شَيءَ يَعْدلُهُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِه شَيءٌ[٢٨]، وَهُوَ السَّميعُ الْبَصيرُ[٢٩]، اللَّطيفُ الْخَبيرُ[٣٠]، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيء قَديرٌ[٣١].

الظاهِر بذاتِه والمظهِر لغيرِه. والقرآن كذلك، فهو بذاتِه آية واضِحة وبيِّنة ساطعة، وهو من ناحية أخرى يُنيرُ للنَّاسِ الطَّريق نحوَ الصِّراطِ المستقيم.

[٢٤] كما قالَ تعالى "وإذا سألَكَ عبادي عنِّي فإنِّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا دَعان" (البقرة، ١٨٦)، فهو عزَّ وجل حثَّ عبادَهُ على الدُّعاء ووعدَهُم الإجابة "وقالَ ربُّكم ادعوني أستَجِب لكُم" (غافر، ٦٠).

[٢٥] "الكُرُبات" جمع "كربة" وهي الشَّدائد، وهي أيضاً الأحزان والغُموم الشَّديدة التي تأخُذ بالنَّفس، فهو سبحانَهُ الذي "يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشِفُ السُّوء" (النمل، ٦٢).

[٢٦] فاللهُ سبحانَهُ هو الرَّافِع للدَّرجات، سواء في عطاياه الدُّنيوية "ورفعنا بعضَهُم فوقَ بعض درجات ليَتَّخِذ بعضُهم بعضاً سخريَّاً" (الزخرف، ٣٢)، أو مواهبِه المعنوية "يرفع اللهُ الذين آمنوا منكُم والذين أُوتوا العِلْمَ درجات" (المجادلة، ١١)، حتى على مستوى الأنبياء حيثُ "رفعَ بعضَهُم درجات" (البقرة، ٢٥٣).

[٢٧] قامع: قاهِر ومُذِل، "يومَ يُسْحَبُون في النَّارِ على وُجُوهِهِم ذُوقوا مسَّ سَقَر" (القمر، ٤٨).

[٢٨] ليسَ لهُ نظيرٌ ولا شبيهٌ ولا مِثْل "ولم يكُن لهُ كُفُواً أَحَد" (الأخلاص، ٤).

[٢٩]وصفة السَّمْع والبَصَر بالنِّسبةِ للهِ تعالى تعود - عند التَّحليل - إلى صفةِ العِلْم، وهي من صفاتِهِ تعالى الذَّاتية. يقول تعالى: "ليسَ كمِثْلِهِ شيءٌ وهو السَّميعُ البصير" (الشورى، ١١).

[٣٠]واللَّطيفُ هو الرَّقيقُ الدَّقيق النَّافذ في الشَّيء، وهو الذي اجتمع له الرِّفق في الفِعْل والعِلْمِ بدقائقِ المصالح وإيصالها إلى من قدَّرها له من خلقِه. والخبير هو الذي يخْبُرُ الشيءَ بعلمه ويعرِفهُ على حقيقتِه. فهو تعالى بكُلِّ شيءٍ محيط، لا يفوتُهُ ظاهِرُ شيءٍ من الأشياء ولا

اللهُمَّ إنِّي أَرْغَبُ إلَيْكَ[32]، وَأَشْهَدُ بالرُّبوبيَّة لَكَ[33]، مُقرّاً بأَنَّكَ ربِّي، وأنَّ إلَيْكَ مَرَدِّي[34]، ابْتَدَأتَني بنعْمَتكَ قَبْلَ أنْ أكُونَ شَيْئاً مَذكوراً[35]، وَخَلَقْتَني منَ التُّراب[36]،

باطنه. يقول تعالى:"لا تُدْركهُ الأبصار وهو يُدركُ الأبصارَ وهو اللّطيفُ الخبير" (الأنعام، ١٠٣).

[31] القُدْرةُ عبارة عن صُدور الفعل بالمشيئة والاختيار، فاللهُ تعالى قادرٌ بمعنى إنْ شاءَ فعَل وإنْ لم يشَأ لم يفعَل. واللهُ سبحانَهُ على كلِّ شيءٍ قدير إلا ما استلزمَ المحال عقلاً، وهو خارج عن موضوع عموميَّة القُدْرة. يقولُ تعالى: "لِتَعلَموا أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير" (الطلاق، ١٢).

[32] "رغَبَ إلى" يعني سأَلَ وابتهَلَ وتضَرَّعَ. و"رغب" تعني بالأساس الميل، لكن إذا لحقها "بـ" أو "في" يُصبح معناها الحِرْص على الشيء، وإذا لحقها "عن" يُصبح معناها الكراهية والإدبار والإعراض، كما في قولهِ تعالى "ومن يرغَبْ عن مِلَّة إبراهيم إلا من سَفهَ نفسَهُ" (البقرة، ١٣٠)، وإذا لحقها "إلى" - كما هو الحال هُنا - يُصبح معناها سأَلَ وابتهَلَ. فالمعنى هنا: اللَّهُم إني أسأَلُكَ وأبتهِلُ وأتضرَّعُ إليك.

[33] وُأخبِرُ خبراً قطعياً عن مُعاينة بأَنَّكَ أنتَ الربُّ المدَبِّر. الربُّ بالمعنى التَّكويني؛ الذي تكفَّل بإفاضة الوجود على الكائنات، كما تكفَّل أيضاً بهدايتها إلى أسبابِ البقاء على قيْدِ الحياة "الَّذي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ" (طه، ٥٠). والربُّ بالمعنى التَّشريعي؛ الذي قنَّنَ وشرَّعَ ما يُنظِّم علاقات الإنسان ويسوقُهُ نحوَ الكمال "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً" (المائدة، ٤٨).

[34] معترفاً بأنَّكَ أنتَ المربِّي لي والمالِك لأمري، مِنْكَ جِئْتُ، وإليكَ أعود "إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون" (البقرة، ١٥٦).

[35] نعمتُكَ سبَقَت وجودي ونشأتي، عندما لم أكُن "شيئاً مذكوراً" (الإنسان، ١). وكأنَّكَ جهَّزتَ الكوْن وأعدَدْتَهُ لقدومي. والعبارات التالية توضيح لكيفية سَبْق نعمتهِ تعالى على الإنسان قبلَ أنْ يكونَ شيئاً مذكوراً.



[36] "ومن آياتِهِ أن خلقَكُم من تُرابٍ ثم إذا أنتُم بشَرٌ تنتَشِرُون" (الروم، ٢٠).

معلومات إضافية:

المقارنات التي تعرِضُها بعض كتابات الإعجاز العِلمي للقرآنِ الكريم، بينَ تركيب التُّراب والطِّين من ناحية، وتركيب جسم الإنسان من ناحيةٍ ثانية، غير صحيحة عِلمياً. فالتُّراب والطِّين مركَّبات أساسُها حُبيبات الرِّمال الدَّقيقة، لذلِك تبلُغ نسبة السِّيليكون فيها أكثر من ٢٠ %، بينَما يخلو جسم الإنسان وباقي الكائِنات من هذا العنصر (باستثناء الدياتومات وهي كائنات أوَّلية وحيدة الخلية)، ويسودُ فيها عنصر الكربون بنسبة تبلُغ حوالي ٣٠ % الذي هو أساس بُنية المادَّة الحيَّة. وهذا يعني أنَّ هذهِ الآيات تشير - على الأرجح - إلى معنى آخر غير معناها الحَرْفي.

التَّفسير الأرجَح لخِلْقةِ الإنسان، من تُرابٍ وطينٍ وصَلْصَالٍ...إلى غيرِها من التَّعابير القرآنية، ما يلي:

- التُّراب والطِّين والصَّلْصال مركَّبات من موادِّ الأرض، لذلِك نفهَم من الآياتِ السَّابقة أنَّ اللّه خلَقَنا من مادَّة الأرض. ومادَّةُ الأرض تشتمِل - بالإضافةِ إلى العناصرِ غير العضوية - على المركَّبات العضوية والكائنات الدَّقيقة أيضاً. ويشير القرآن الكريم إلى العناصر غير العضوية في قشرةِ الأرض بلفظ "التُّراب". "ومن آياتِهِ أن خلقَكُم من تُرابٍ ثم إذا أنتُم بشَرٌ تنتَشِرُون" (الروم، ٢٠).

- ثمَّ أسماها "طيناً" بعد أنْ اختلَطَت بالماء، "وبدأ خلقَ الإنسانِ من طين" (السجدة، ٧). وهذهِ العناصر مع الماء هي أصل المركَّبات العضوية الهيدروكربونية. وقد أشارَ القرآن الكريم إلى هذهِ المركَّبات باصطلاح "الطِّين اللازب"، "إنَّا خلقناهم من طينٍ لازب" (الصَّافات، ١١)، أي الطِّين الرَّخْو اللَّزِج، لما فيهِ من مواد مُخاطيَّة عضوية، وقد تكوَّنت من هذهِ المركَّبات الهيدروكربونية مركَّبات الحياة

(البروتينات، الأحماض النووية، الكربوهيدرات، الدهون). "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" (الأنبياء، ٣٠).

• وكما تُصنَع الملابس والفُرْش من القِماش كمادَّة أوَّلية، فـ "الصَّلصال" هو المادَّة الأوَّلية التي يَستَخْدِمُها الصُّنَّاع لصِناعة التماثيل والأواني. و"الحمأ المسْنُون" يعني الطين المنتن المصَوَّر. ولا ينتُن الطِّين إلا إذا خالَطَتْهُ البكتيريا الحيَّة. بذلك يشير وصف "ولقد خلقنا الإنسانَ من صَلصالٍ من حمأٍ مسنون" (الحجر، ٢٦) إلى الخليَّة الحيَّة التي هي الوِحْدة الأوَّلية الحيَّة التي تتشكَّل منها الكائنات.

والسِّمة المميزة لـــ "الفخَّار"، والتي يختلف بها عن الطِّين، هي المسامية والنفاذية؛ لذلكَ إذا وُضِعَ الماءُ في قُلَل الفخار نفذَ من خلالِ مَسامها. هل تعلَم - أيُّها القارئ الكريم - أنَّ أجهزة الغسيل الكلَوي، التي تُحاكي بها وظائفَ الكلَى في الإنسان، تتركَّب من مُرشَّحات من الفخَّار، تُنقِّي الدَّمَ مما يُخالِطُهُ من موادٌ سامَّة! إنَّ المسامية والنفاذية هي السِّمة الأساسية المميِّزة لجدارِ الخليَّة؛ لذلك إذا فُقِدَت نفاذية الجدار الخلَوي ماتَ الكائِن الحي من فورِه. في ضوءِ ذلك نفهم اصطلاح القرآن الكريم المعجز "خلقَ الإنسانَ من صَلصالٍ كالفخار" (الرحمن، ١٤)، باعتبارِه إشارة إلى أهمِّ سمات الحياة التي تُميِّز الخلية.

إنَّ الآيات السَّابقة والمصطلحات التي ذكرناها قد تُشير – ضمن ما تُشير إليه من معان – إلى الأطوار التي مرَّت بها الخليَّة الحيَّة حتى دَبَّت فيها الحياة:

المادَّة غير الحيَّة ← المادَّة العضوية ← مركَّبات الحياة ← الخليَّة الحيَّة

ويبدو أنَّ هذه الأطوار تقَع في إطار قول الله تعالى: "هل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهرِ لم يكُن شيئاً مذكوراً" (الإنسان، ١). فالإنسانُ في غابرٍ من الدَّهر كانَ يمُرُّ في نشأتهِ بهذه الأطوارِ، ولم يكُن قد وصَلَ إلى أنْ يكون شيئاً ذا قيمة.



ثُمَّ أسْكَنْتَنِى الأَصْلابَ[٣٧]، آمِناً لِرَيْبِ الْمَنُونِ[٣٨]، وَاخْتِلافِ الدُّهُورِ والسِّنينَ[٣٩]،

- ووفقاً لنظريَّة التطوُّر الموجَّه – بيدِ الصانِع الحكيم – وبالإستعانة بنظرية الإنفجار الأعظم، وُلِدَ الكون بانفجارٍ كبير قبل ١٣,٧ مليار سنة، ثم ظهرَت شظيَّة الأرض المستَعِرة قبل ٤,٥ مليار سنة "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا" (الأنبياء، ٣٠)، وفجأة تحرَّكَ جنينُ الحياة في أحشاءِ الأرض قبل٣,٧ مليار سنة. بدأَ خلْقُ جميع الكائنات الحيَّة من الماءِ وعناصرِ الأرض غير العُضويَّة (التُّراب والطِّين)، ومنها نشأَتْ المرُكّبات العُضويَّة الهَيْدروكربونيَّة (الطِّين اللاَّزِب) التي تشكَّلَتْ لتُخرِج لنا الخليَّة الحيَّة الأُولى (صلْصال كالحمأ المسْنون وصلْصال كالفَخَّار). ومن هذهِ الخليَّة تشكَّلَ العديد من مجموعات الكائنات الحيَّة (أُمَمٌ أمثالُنا).

فكانت البداية كائنات حيَّة بسيطة تتكاثَر تكاثُراً لا جنْسيًّا، ثم نشأَتْ الكائنات التي تتكاثَر جِنْسيّاً عن طريقِ النُّطَف "ثُمَّ جعَلناهُ في قرارٍ مكين" (المؤمنون، ١٣)، ومنها الفقَّاريات البَيوضة. ثم ظهرَت الثديَّيات التي تعلَق نُطَفها في جدارِ الرَّحِم لتتحوَّل إلى مُضغةٍ يتكوَّن منها اللَّحم والعظام. والإنسانُ – كجسد – يشترِك مع الثديَّيات في هذهِ الأطوار، قبلَ أنْ يصطفي من الكائنات الصانع الحكيم آدم، "إنَّ الله اصطفى آدم" (آل عمران، ٣٣)، ويصير كائناً متميِّزاً بالعَقْل "ثُمَّ أنشأناهُ خَلْقاً آخر" (المؤمنون، ١٤).....والله أعلم.

[٣٧] لأنَّني في النِّهاية إنسانٌ "خُلِقَ من ماءٍ دافِقٍ، يَخرُجُ من بينِ الصُّلبِ والترائِب" (الطارق، ٧). و"الأصْلاب" جمع "صُلْب" وهو فقار الظَّهْر من الإنسان (والترائب عظامُ الصَّدْر مما يلي الترقوتين). والمقصود: أنَّك سبحانَكَ بعد أنْ خلَقْتَ آدم، المخلوق من تُراب، أسكَنْتَني في سلسلةٍ مُحدَّدة من الآباء.

[٣٨] آمِناً لحوادثِ الدَّهر. فرغم الصِّراع الدائِر في الكون بين الكائنات من أجلِ البَقاء، ترَكْتَ آبائي الذينَ أنحدِر منهم سالمين حتى يأتي دَوْري للدُّخول إلى مسرحِ الحياة.

فَلَمْ أزَلْ ظاعناً مِنْ صُلْبٍ الى رَحِمٍ[٤٠]، فى تَقادُمٍ[٤١] مِنَ الأَيّام الْماضيَة، وَالْقُرُون الْخاليَة[٤٢]، لَمْ تُخرجْنى[٤٣] لِرَأفتِكَ[٤٤] بي، وَلُطْفكَ[٤٥] لي، وَإحْسانكَ إلَيَّ، في دَوْلَة[٤٦] أئمَّة الْكُفْرِ[٤٧] الَّذينَ نَقَضُوا عَهْدَكَ[٤٨]، وَكَذَّبُوا رُسُلَكَ[٤٩]، لكنَّكَ أخْرَجْتَنى للَّذي

---

[٣٩] وآمناً لتعاقُب الأزمنَة والسَّنوات.فرَغْم الكثير من الكوارثِ الطَّبيعية التي مرَّت بها الأرض من زلازل وبراكين وفيضانات وأمراض على مرِّ العصور، أبقَيْتَ آبائي الذينَ أنحدرِ منهم سالمين حتى يأتي دوُري للدُّخول إلى مسرحِ الحياة.

[٤٠] لم أكُف عن السَّيرِ والارتحال من صُلْبِ أبٍ إلى رَحِمِ أُم في سلسلة الآباءِ والأمَّهات. وهذه العبارة "فلمْ أزَل ظاعناً من صُلْبٍ إلى رَحِم" تكشف عن أنَّ ذريَّة كل إنسان موجودة – بنحوٍ ما - في صُلْبِه إنْ كانَ رجُلاً، وفي رَحِمَها إنْ كانت إمراة.

[٤١] "تقادَمَ" الشَّيء: قدُمَ وطالَ عليه الأمد.

[٤٢] "الخالية": الذاهبة والماضية.

[٤٣] إلى العالَم الخارجي بشكلٍ مُنفصِلٍ عن أصلابِ الآباءِ وأرحامِ الأمَّهات.

[٤٤] الرأفة: أشدُّ الرحَّمة.

[٤٥] اللُّطف: الرِّفق واللِّين.

[٤٦] الدَّوْلَة: الغلَبَة والسُّلْطان.

[٤٧] وهذهِ نعمةٌ جديدة، فبالإضافةِ إلى حمايةِ جسَدي من الأخطار، لقد هيَّأت لي — يا ربِّ - الأجواء الرُّوحية والمعنوية. فلم أدخُل لمسرحِ الحياة في ذُروةِ قوَّة وسلطَنة أئمة الكُفْر. أئمة الكفر يعني قادتُهم مثل نمرود وفرعون وهامان وأحبار بني إسرائيل، فضلاً عن مُشْركي قريش الذين نقَضُوا أقسامَهُم وهمُّوا بإخراجِ الرَّسول (ص) فأنزلَ اللهُ في حقِّهم: "وإنْ نكثُوا أيمانَهُم من بعد عَهْدهم وطعنُوا في دينكُم فقاتلوا أئمةَ الكُفْر إنَّهم لا أيْمانَ لهم لعلَّهم يَنْتهون، ألا تُقاتلونَ قوماً نكثُوا أيمانَهُم وهمُّوا بإخراجِ الرَّسول وهم بدَءوكُم أوَّلَ مرَّة أتخشوهُم؟ فاللهُ أحقُّ أنْ تخشَوهُ إنْ كُنتُم مؤمنين" (التوبة، ١٢-١٣).

[٤٨] القَدْر الواضِح من نقْضِ العهد، الذي تورَّطَ به جميع أئمة الكُفْر، نقضُ العهد والميثاق الفِطري بينَ العبد وربِّهِ، والذي تحدَّثَ عنهُ القرآن الكريم في قولِه تعالى: "وإذْ أخذَ ربُّكَ



سَبَقَ لي مِنَ الْهُدى[50]، الَّذي لَهُ يَسَّرْتَنِي، وَفيهِ أَنْشَأْتَنِي[51]، وَمِنْ قَبْلِ رَؤُفْتَ بي، بِجَميلِ صُنْعِكَ[52]، وَسَوابِغِ نِعَمِكَ[53]، فابْتَدَعْتَ خَلْقي مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى[54]، وَأَسْكَنْتَني

من بني آدم من ظُهورهِم ذُريَّتَهُم وأشهدَهُم على أنفُسِهم ألسْتُ بربِّكُم؟ قالوا: بلى شهِدْنا، أنْ تقولوا يومَ القيامة إنَّا كُنَّا عن هذا غافلين" (الأعراف، ١٧٢).

[49] فقد كذَّبَ نمرودُ إبراهيمَ (ع)، وكذَّبَ فرعونُ موسى (ع)، وكذَّبَ بنو إسرائيل عيسى (ع)، وكذَّبت قريشُ محمداً (ص).

[50] أي لم تُخرجْني يا إلهي إلى الدُّنيا إلا بعدَ أنْ انتشرَ الهُدى واستَحْكَمَ أمرُهُ.

[51] ذلك الهُدى الذي سهَّلتَ لي طريقَهُ، وفي أجوائهِ ربَّيتَني...فالإمامُ الحسين (ع) وُلِدَ في المدينة سنة ٤ هج، بعدما تجاوزَ رسولُ الله (ص) والمسلمون صعوبات المرحلة المكّية والويلات التي لاقَوْها من أئمةِ الكُفْر القُرَشيين، فالإمامُ الحسين (ع) لم يشهَد هذه المرحلة، بل وُلِدَ بعد أنْ استقرَّ في المدينة أمرُ الإسلام، وأسسَّ رسولُ الله (ص) فيها مجتمعاً جديداً، مفعماً بالإيمان والحماسةِ للدِّين.

[52] أي وقبل أنْ تُخرجْني بشكلٍ مستقلٍ إلى عالَمِ الدُّنيا، اشتدَّت رحمتُكَ لي، بجميلِ خلْقَتِك.

[53] واشتدَّت رحمتُكَ لي بالكامل وبالوافي من نعَمِك.

[54] وأنشأْتَ خَلْقي على غيرِ مثالٍ سابق من مَنيٍّ يُصَبُّ في الرَّحِم، قالَ تعالى "وأنَّهُ خلَقَ الزَّوْجَين الذَّكر والأُنثى من نُطفة إذا تُمنى" (النجم، ٤٥-٤٦) وقالَ تعالى أيضاً "ألم يكُ نطفةً من منيٍّ يُمنى، ثمَّ كانَ علَقَةً فخَلَقَ فسوَّى، فجعلَ منهُ الزَّوجين الذكرَ والأُنثى، أليسَ ذلكَ بقادرٍ على أنْ يُحييَ الموتى" (القيامة، ٣٧-٤٠).

معلومات إضافية:

المني: نُطْفَةُ الرَّجُل، وهو سائلٌ مبيض غليظ تسبَح فيه المنويات، التي تُسمى كذلك النّطاف أو الحيوانات المنويَّة. وتتكوَّن المنوِّيات إثر سلسلة من الإنشطارات منشَؤُها طبقة ثابتة من خلايا الأنابيب المنويَّة الدّقاق التي تُشكِّل جُل الخِصية، ولهذا فهي تحمِل الصِّفات الوراثية لصاحِبها حتى إنْ أُزيلت الخصية فزُرِعَت في رجُلٍ آخر وأنتجَت فيهِ منوياتها. وتتوزَّع

في ظُلُمات ثَلاث[٥٥]، بَيْنَ لَحْم وَدَم وَجِلْد، لَمْ تُشْهِدْني خَلْقي[٥٦]، وَلَمْ تَجْعَلْ إلَيَّ شَيْئاً مِنْ اَمْري[٥٧]، ثُمَّ أخْرَجْتَني لِلَّذي سَبَقَ لي مِنَ الْهُدى إلَى الدُّنْيا تامّاً سَوِيّاً[٥٨]،

الأجسام الصِّبْغيَّة (= الكروموسومات) التي تحمل المورِّثات بكُلِّ خليَّة على منويين، فكلُّ منوي يحمِل نصف العدَد أي ٢٣ جِسْماً صِبْغياً، حتى إذا قُدِّرَ لهُ أنْ يلتَحِم ببويضة أُنثى ناضجة، أي تحمِل كذلك نصف العدَد، نشأت البَيْضة الملقَّحة محتوية على الصِّبْغيَّات السِّتة والأربعين التي تمتاز بها خلايا الإنسان.

[٥٥] الظُّلمات الثُّلاث - على ما قيل - هي ظُلْمَة البطن والرَّحِم والمشيمة، قال تعالى "يخلُقُكم في بُطونِ أُمَّهاتِكُم خَلْقاً من بعدِ خَلْقٍ في ظُلُماتٍ ثلاث" (الزمر، ٦). ويرى آخرون أنَّ الظُّلمات الثلاث هي ظُلْمة صُلب الأب وظُلمة بطن المرأة وظُلمة الرَّحِم. أما المحدِثون فمنهُم من فسَّرها بجدار الرَّحِم ثمَّ المشيمة وأغشيَتَها ثم العَمَى الطَّبيعي في الجنين، فمن المعروف أنَّ حاسَّةَ البصَر لا تعمَل إلا بعدَ الولادة بفترة. ومنهُم من فسَّرها بالغشاء الأمنيوسي والغشاء الكوريوني والغشاء السَّاقِط، وهو بطانةُ الرَّحِم التي تسقُط مع الجنين. ومنهُم من فسَّرها بأنَّها المبيض وقناة فالوب والرَّحِم...والعبارة التَّالية: "بينَ لحْمٍ ودَمٍ وجِلْد" قد تُساعِد في ترجيحِ التَّفسير الأفضَل للظُّلمات الثُّلاث...واللهُ تعالى أعلَم.

[٥٦] لم تُرِني يا إلهي كيفيَّة خَلْقي، ومراحل تكوُّني، والتي ذكَرْتَها في قولك "ولقد خلَقْنا الإنسانَ من سُلالة من طين، ثُمَّ جعلناهُ نطفةً في قرارٍ مكين، ثم خلَقنا النُّطفةَ علَقةً، فخَلَقنا العلقةَ مُضْغةً، فخَلَقنا المضْغةَ عظاماً، فكَسَونا العظام لحماً، ثمَّ أنشأناهُ خَلْقاً آخَرَ، فتبارَكَ اللهُ أحسَنُ الخالقين" (المؤمنون، ١٢-١٤)، وذكرتَها في قولِك "يا أيُّها النَّاس إنْ كُنْتُم في رَيبٍ منَ البَعْث فإنَّا خلَقْناكُم من تُراب، ثمَّ من نُطْفة، ثمَّ من علَقَة، ثمَّ من مُضْغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، لنُبيِّنَ لكم، ونُقرُّ في الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسمَّى، ثُمَّ نخرجُكُم طفْلاً..." (الحج، ٥). فمن ناحية لم أشهَد – يا إلهي – خَلْق آبائي وأجدادي الذينَ هُمْ أيضاً من مراحلِ خَلْقي لأنَّهُم أسبابٌ إعداديَّة بعيدة لنشأتي، كما لم أشهَد بعدَ ذلكَ خَلْقي عندما تكوَّنَت نُطْفَتي ثم انتقلَتْ إلى قرارٍ مكين وبدأتْ رحلةَ النُّمو في بطنِ أُمِّي.

[٥٧] ولم تُحِل إليَّ أيَّ قرار أتَّخذه بشَأْني الخاص، في أيِّ مرحلةٍ من مراحل خَلْقي وتكوُّني.



وَحَفظْتَني فِى الْمَهْدِ طِفْلاً صَبِيّاً[٥٩]، وَرَزَقْتَني مِنَ الْغذاءِ لَبَناً مَرِيّاً[٦٠]، وَعَطَفْتَ عَلَيَّ قُلُوبَ الْحَواضِنِ[٦١]، وَكَفَّلْتَني الأُمَّهاتِ الرَّواحِمَ[٦٢]، وَكَلأْتَني مِنْ طَوارِقِ الْجانِّ[٦٣]، وَسَلَّمْتَني مِنَ الزِّيادَةِ وَالنُّقْصانِ[٦٤]، فَتَعالَيْتَ يا رَحيمُ يا رَحْمنُ[٦٥]، حتّى اِذا

---

[٥٨] ثمَّ أخرَجْتَني بعدَ ذلكَ بشكلٍ مستقلٍّ إلى الدُّنيا كاملاً سوي الخَلْقة في أجواءِ هُدى كانت قد سبَقَت خُروجي إليها. يقول تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" (التين، ٤).

[٥٩] وحفظْتَني - يا إلهي - عندما كُنْتُ في الفِراش طِفْلاً صغيراً في مرحلة الرِّضاع، وهي مرحلة شديدة الخطورة، لأنَّ بُنْيَتي في هذهِ المرحلة كانت بالغة الحساسيَّة، وعُرْضة للأمراض، فلَم يكُن بمقدوري أنْ أدفَع عن نفسي الأخطار الخارجيَّة، وكُنْتُ بحاجةٍ إلى عنايةٍ خاصَّة، فتكَفَّلْتَ بذلكَ كلِّه. وأنتَ - يا إلهي - خصَّصْت ملائكة لحفْظ الإنسان طالما لم يأْتِ أجلُهُ، فقُلْتَ سبحانَك "إنْ كلُّ نفسٍ لَّما عليها حافظ" (الطارق، ٤)، وقُلْتَ "لهُ مُعَقِّباتٌ من بينِ يديهِ ومن خَلْفه يحفظونَهُ من أمرِ الله" (الرعد، ١١)، وأيضاً "وهو القاهرُ فوقَ عبادهِ ويُرسلُ عليكُم حفَظَة" (الأنعام، ٦١).

[٦٠] فالإنسانُ - يا إلهي - في هذهِ المرحلة رغم أنَّهُ لا يستطيع توفير الغذاء لنفسهِ أصلاً، إلا أنَّكَ وفَّرْتَ لي لبَناً سائغاً زاخراً بالمكوِّنات التي يحتاجُها الرَّضيع لنشأتهِ وتقويةِ عظامه.

[٦١] وزرَعْتَ - يا إلهي - العَطْفَ في قلوبِ من تكَفَّلَ بتربيتي من المربِّيات. و"الحواضِن" جمعُ "حاضِنة"، وهي التي تقومُ مقامَ الأُم في تربيةِ الولَد وحفْظهِ.

[٦٢] وجعَلْتَ الأُمَّهات الرَّحيمات يتكفَّلْنَ بي. وهذا العاطفة التي غرَسْتَها — يا إلهي - في قُلوبِ الحواضِنِ والأُمَّهات الرَّواحِمِ تثيرُ حيرَتي ودَهْشَتي.

[٦٣] الطوارق جمْع طارق، وهو كلُّ آتٍ باللَّيل. والجانّ هو الكائن المستور عن الأبصار، ويعني أيضاً الحيَّة. والمعنى: وحرَستَني وحفَظتني — يا إلهي - من الحوادِث التي كانَ من الممكن أنْ تقع لي بسببِ كائنات مستورة عن بصَري.

[٦٤] في الخِلْقة، حيثُ سوَّيْتَ أعضائي في مواضِعِها، ثم عدَّلْتَ ووازَنْتَ بين أعضائي بحيث كلُّ عضوٍ يُكمِّل الآخر، ويعمل بانسجامٍ مع بقيةِ الأعضاء، فلم تخْلُق - يا إلهي - عضواً من أعضاءِ جسمي عبَثاً وزائداً، ولم أكُن بحاجةٍ إلى عُضوٍ ليتحقَّق التوازُن في جِسْمي إلا



اِذَا اسْتَهْلَلْتُ[٦٦] ناطِقاً بِالْكَلامِ، أتْمَمْتَ عَلَيَّ سَوابِغَ الانْعامِ[٦٧]، وَرَبَّيْتَني زائِداً فى

وخلَقْتَهُ لي. "يا أيُّها الإنسانُ ما غَرَّكَ بربِّك الكريم، الذي خلقَكَ فسوَّاكَ فعدَلَك في أيِّ صُورةٍ ما شاءَ ركَّبَك" (الانفطار، ٦-٨).

أجهَلُ الغايةَ من وجود عضو، إذن هذا العضو لا غايةَ لوجوده!!

الظواهر التي يتَشبَّث بها أتباع مدرسة داروِن الملْحِدُون، بوصفِها تُنافي التَّنظم في الكون، والحكمة في الخِلْقة، وتؤكِّد عشوائية التطوُّر، هي — في نظَرِهم — ظواهر زائِدَة لا أهميةَ لوجودها، كالزائدة الدُّودية وضِرْس العَقْل وثديي الرَّجُل، ويتحدَّثون عن أمورٍ ناقِصَة، كقُصْر النَّظر والبُقعة العَمْياء في العَيْن....الأمر الطَّريف هو أنَّهم يأخُذُونَ جهلَهُم بغايةِ هذه الظَّواهر الطَّبيعية منطلقاً يستدِلُّون به على وجودِ عشوائية الكون وأنْ لا غايةَ لوجودِ هذه الظَّواهر! فهل يُمكن الاستناد إلى الجهل بغايةِ شيءٍ للإدعاء بعدَم وجود غاية له؟! وهل يُمكن الاستدلال — منطقياً - بعدَم الوجْدان على عدَم الوجود؟!

[٦٥] الرَّحيم: ذو الرَّحمة الدائمة الثَّابتة على المؤمنين خاصَّة. الرَّحمن: ذو الرَّحمة الكثيرة على خَلْقِه مؤمنهم وكافرهم، وهي الرَّحمة العامَّة. و"الرحَّمن" اسمُ علَم على ذاتِ الله ولا يُطلَق على غيرِه.

[٦٦] بدأتُ أرفَعُ صَوْتي ناطِقاً بالكلام.

معلومات إضافية:

مع تطوُّر عِلْم الجينات الوراثية، أثبتَ العُلَماء أنَّ جسَدَ الإنسان لا يختلف عن أرقى الحيوانات إلا في حوالي ٢ % من شفرَتِه الوراثية العامِلَة. وينبغي ألا نَنْظُر إلى هذه الاختلافات نظرة كمِّية فقط، ففي هذه الـــ ٢ % يكمُن سرّ التفوُّق المعرفي الشاسِع للجنس البشَري على غيرِه من الحيوانات. إذ أدَّى هذا الاختلاف الضَّئيل إلى نموٍ ضخم للقشْرة المخيَّة، أضافَ مخزَناً للمعلومات في خلايا المخ يتَّسع لحوالي عشرة تريليونات (واحد على يمينه ١٣ صفراً) معلومات إضافية Bit. ومن أهمِّ مراكِز المخ البشَري



وأكبرها مراكز اللُّغة ، تفكيراً ونُطقاً وسَمْعاً وفَهْماً. وتُمثِّل "اللُّغة" فارقاً جوهرياً بينَ الإنسانِ وغيرِه من الكائنات، فهي تضَع داخِل المخ مقابِلاً للعالَم المحيط، فتُمكِّن الإنسان من أنْ يكون لهُ تاريخ وأنْ يعيش الحاضر وأنْ يُخطِّط للمستقبل. كما تُعتَبر اللُّغة وسيلة أساسيَّة للتَّفكير، خصوصاً فيما يتعلَّق بالمفاهيم المجرَّدة. ذلك بالإضافة طبعاً إلى أنَّ اللُّغة هي من أهمِّ وسائل الإتِّصال.

وقد اهتمَّ الإنسانُ منذُ عصور بدراسةِ اللُّغة. وخلال القَرْن العشرين تركَّزَت دراسات "علوم اللُّغويات" حول بعض نواحي الكلام مثل الصوتيَّات، ومعاني المفردات، وتركيب العبارات. ولعلَّ من أهمِّ الدِّراسات في مجال "تركيب العبارات" دراسات ناعوم تُشومِسكي – من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا – الذي أثبتَ أنَّ الطفل يُولَد ومخُّهُ مُعَدٌّ لتكوين جُمَل صحيحة ذات معنى؛ فبمجرَّد تلقِّيه لبعضِ المفردات وبعض العبارات، يُصبِح قادراً على تكوين ما لا نهايةَ له من الجُمَل صحيحة التركيب. وتتِم هذهِ العملية في مرحلةٍ مُبكِّرة من العمر، وتُصبِح هذه اللُّغة هي "اللُّغة الأُم".

لكن تاريخياً متى استهلَّ الإنسانُ بالكلام؟ لقد وُجِدَت علامات في جماجِم "الإنسان الصنَّاع" تُثبِت وجود أهم مراكز المخ اللُّغوية (منطقة بروكا: المنطقة المسئولة عن اللُّغةِ والكلام في الفصِّ الجبهي الأيسر) في مخِّ هذهِ الكائنات، مما يشير إلى أنَّ الإعداد لنشأة القُدْرة على الكلام قد حدَثَ منذ حوالي خمسة ملايين عام.

ولا شكَّ أنَّ نشأَة القُدْرة على الكلام عمليةٌ معقَّدة، سبقَها نشأة مراكز داخل المخ لتقييم البيئة المحيطة، وعندما تمكَّنَ الإنسانُ من ذلك، بدأَ في التواصُل عن طريقِ "الإشارات" باليدِ والوَجْه، والتي قد يصحَبُها إصدارُ بعضِ الأصوات. ثمَّ تلَتْ ذلكَ مرحلةُ الكلام، التي تتطلَّب – إلى جانبِ مراكز المخ – موقِعاً معيَّناً للحُنْجَرة، يتمثَّل في انخفاضِ مستواها ومستوى الحبال الصوتيَّة، وهذا الموضِع موجودٌ في الإنسانِ فقط. ومن خلالِ ما اكتشفَهُ العُلَماء من أنَّ تغيُّر موقِع الحُنْجَرة يَصْحَبُهُ تغيُّر في شكلِ ثقب قاع الجُمْجُمة، توصَّلوا إلى

كُلِّ عامٍ[68]، حَتّى إذَا اكْتَمَلَتْ فِطْرَتي[69]، واعْتَدَلَتْ مِرَّتي[70]، أوْجَبْتَ عَلَيَّ حُجَتَّكَ[71]، بِأنْ أَلْهَمْتَنِى مَعْرِفَتَكَ[72]، وَرَوَّعْتَني بِعَجائِبِ حِكْمَتِكَ[73]، وَأيْقَظْتَنى لِما ذَرَأتَ فى سَمائِكَ وَأرْضِكَ مِنْ بَدائِعِ خَلْقِكَ[74]، وَنَبَّهْتَني لِشُكْرِكَ وَذِكْرِكَ[75]، وَأوجَبْتَ عَلَيَّ طاعَتَكَ وَعِبادَتَكَ[76]، وَفَهَّمْتَني ما جاءَتْ بِهِ رُسُلُكَ[77]، وَيَسَّرْتَ لي

أنَّ الكلام خاصيَّة لم يكتمِل تشكيلُها إلا بظهورِ الإنسان الحديث، ووجدوا أيضاً أنَّ إنسان نياندرتال (= استوطَنَ أوروبا وأجزاء من غرْب آسيا وآسيا الوُسْطى قبل ٣٥٠,٠٠٠ سنة في فترة تزامَنَت مع العصرِ الجليدي، وانقرَضَ قبل ٢٤,٠٠٠ سنة مضت) كانَ يفتقد هذهِ القُدرة. بالتالي، يرى العلماء أنَّ الإعداد قد تمَّ تشريحياً لنشأة اللُّغة قبل أنْ يبدأ أسلافُنا في الكلامِ بفترةٍ طويلة.

[67] أكمَلْتَ عليَّ نعَمَكَ الوافية.

[68] فكُنْتَ تَرْعاني بحيث ينمو جِسْمي، وأتعلَّمُ شيئاً جديداً، وتتراكم خِبْراتي وتجارُبي في الحياة عاماً بعدَ عام.

[69] واستمرَّت هذهِ الزِّيادة وهذا النُّمو إلى حينِ اكتمال خِلْقَتي وطبيعتي السَّليمة التي لم تُشَب بعَيْب، "فطرةَ الله التي فطرَ النَّاسَ عليها لا تبديلَ لخَلْقِ الله" (الروم، ٣٠).

[70] واشتدَّ عقلي وصارَ مزاجي مُعتَدِلاً.

[71] ألزَمْتَني بدليلِكَ وبُرهانك، وذلك بأنْ....

[72] ألقيتَ في رَوْعي وأوقَعْتَ في قلبي معرفتَكَ بحيث اطمئنَّ صَدْري لهذهِ المعرفة.

[73] وأثَرْتَ دَهْشَتي وفزَعي من أفعالِكَ الحكيمة المُتْقَنة والعجيبة.

[74] ونبَّهتَني من نومِ الغفلة لما خلَقْتَ في سمائِكَ وأرضِكَ من مخلوقات بديعة.

[75] وجَعَلْتَني عارفاً بقيمة وأهميَّة النِّعم واعياً لضرورةِ الثَّناء – قَلْباً ولِسَاناً وعمَلاً - على ما أوْلَيتني من معروف، وأنْ أكون مُتذَّكراً لكَ جاعلاً إياكَ نُصبَ عينيَّ على الدَّوام.

[76] والزَمْتَني بالطَّاعةِ والخُضُوعِ انقياداً لكَ وتقرُّباً إليك.



تَقبُّلَ مَرْضاتِكَ[78]، وَمَنَنْتَ عَلَيَّ في جَميعِ ذلِكَ بِعَونكَ وَلُطْفكَ[79]، ثُمَّ اذْ خَلَقْتَني مِنْ خَيْرِ الثَّرى[80]، لَمْ تَرْضَ لي يا إلهي نِعْمَةً دُونَ اُخرى[81]، وَرَزَقْتَني مِنْ أنواعِ الْمَعاشِ[82]، وَصُنُوفِ الرِّياشِ[83] بِمَنِّكَ الْعَظيمِ الأَعْظَمِ عَلَيَّ، وَإحْسانِكَ الْقَديمِ إلَيَّ، حَتّى اذا أتْمَمْتَ عَلَيَّ جَميعَ النِّعَمِ، وَصَرَفْتَ عَنّي كُلَّ النِّقَمِ[84]، لَمْ يَمْنَعْكَ جَهْلي وَجُرْأَتي عَلَيْكَ أَنْ دَلَلْتَني إلى ما يُقَرِّبُني إلَيْكَ[85]، وَوفَّقْتَني لِما يُزْلِفُني لَدَيْكَ[86]، فَإنْ

---

[77] وجَعَلْتَني مستوعِباً لأهدافِ الرُّسل (ع)، مُدركاً للمضامين التي جاؤوا بها، عارفاً بالأوامرِ والنواهي التي أكَّدوا على الالتزام بها.

[78] وسهَّلْتَ لي القبول بما يُرضيك، وهذه نعمةٌ عظيمةٌ جداً، لأنَّها علامةُ الهداية، "فمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يهديَهُ يشرَح صدرَهُ للإسلام ومن يُرد أنْ يُضلَّهُ يجعَل صدرَهُ ضيِّقاً حرَجاً كأنَّما يصعَّد في السَّماءِ كذلكَ يجعل اللهُ الرِّجسَ على الذينَ لا يُؤمنون" (الأنعام، ١٢٥).

[79] وتفضَّلْتَ عليَّ بأنْ كانَت كلُّ النِّعَم التي ذكرتها مقرونةً بعَوْنكَ لي ورفقك بي.

[80] ورَغْمَ أنَّكَ خلَقتَني - يا إلهي - من أفضلِ مُكوِّنات الأرض.....وفي بعض النُّسخ: "ثمَّ إذْ خلَقْتَني من حُرِّ الثرى": حرُّ كلِّ أرض وسطَها وأطيبَها.

[81] لم تكتَف - يا إلهي - بالتَّفضُّلِ عليَّ بنعمةٍ دونَ أخرى، بل تفضَّلْتَ عليَّ بنِعَمٍ لا تُحصى.

[82] المعاش: ما تكون به الحياة من المطْعَمِ والمشْرَب ونحوهما.

[83] الرِّياش: الأثاث والألبِسة الفاخرة.

[84] "النِّقَم" جمع "نِقْمة": المكافأة بالعقوبة.

[85] فرَغْمَ جَهْلي – يا إلهي – وجُرْأَتي عليك، أرشَدْتَني للأمور التي تُقرِّبني إليك؛ كالإخلاص في توحيدك واجتناب عبادة الطَّاغوت وعدَم اليأس من رَوْحِك وعدم سَفْك الدَّم الحرام وأكل أموال النَّاس بالباطلِ والتَّواضُع والصِّدْق وأداء الأمانة والإحسان للوالدين وإطعامِ المساكين وعتْقِ الرِّقاب والإعتناء باليَتامى وقضاء حوائج المحتاجين.

[86] ورَغْمَ جَهْلي – يا إلهي – وجُرْأَتي عليك، وفَّقْتَني فعلاً للقيام بالأعمالِ الصَّالحة التي تقرِّبني إليك.



دَعْوَتُكَ أجَبْتَني[٨٧]، وَإنْ سَأَلْتُكَ أعْطَيْتَني[٨٨]، وَإنْ أطَعْتُكَ شَكَرْتَني[٨٩]، وَإنْ شَكَرْتُكَ زِدْتَني[٩٠]، كُلُّ ذلكَ إكمالٌ لأَنْعُمِكَ عَلَيَّ، وَإحْسانكَ إلَيَّ، فَسُبْحانَكَ سُبْحانَكَ[٩١]، مِنْ مُبْدِئٍ مُعيد[٩٢]، حَميدٍ مجيد[٩٣]، تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُكَ[٩٤]، وَعَظُمَتْ آلاؤُكَ[٩٥].

---

[٨٧] تنفيذاً - يا إلهي - لما قُلْتَ في كتابك "وإذا سألكَ عبادي عني فإنّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعان" (البقرة، ١٨٦)، أيضاً "وقالَ ربُّكم اُدْعُوني أستَجِب لكُم" (غافر، ٦٠).
[٨٨] "وآتاكُم من كلِّ ما سألتُمُوهُ" (إبراهيم، ٣٤)، "وما كانَ عطاءُ ربِّكَ محظوراً" (الإسراء، ٢٠).
[٨٩] كما قُلْتَ - يا إلهي - في كِتابِك "ومن تطوَّعَ خيراً فإنَّ اللهَ شاكرٌ عليم" (البقرة، ١٥٨)، وقُلْتَ "ومن يقترِف حسَنَةً نزِد لهُ فيها حُسْناً إنَّ اللهَ غفورٌ شكور" (الشورى، ٢٣).
[٩٠] تنفيذاً - يا إلهي - لوَعْدِك المذكور في كِتابِك "وإذْ تأذَّنَ ربُّكُم لئِن شكَرْتُم لأَزيدَنَّكُم" (إبراهيم، ٧).
[٩١] مُنزهٌ ومُقدَّسٌ أنتَ يا الله، مُنزهٌ ومُقدَّسٌ عن كلِّ نقصٍ وسوءٍ وعن كلِّ ما لا يَليقُ بك.
[٩٢] يُوجِد الخَلْقَ ثمَّ يفنيه ثم يُعيدُه، "قُل هَل مِن شُركائِكُم مَن يبدؤا الخلقَ ثم يُعيدُهُ؟! قُل: اللهُ يبدؤا الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُه، فأنّى تُؤفَكون؟!" (يونس، ٣٤).
[٩٣] الحميد: الموصوف بالثَّناءِ الجميل وفاعل ما يستوجِب الحمْد. المجيد: الموصوف بالكرَمِ والإحسان وفاعل ما يستوجب المجد "إنَّهُ حميدٌ مجيد" (هود، ٧٣).
[٩٤] تنزّهَت أسماؤُك الحُسْنى عن كلِّ نقْص.
[٩٥] "آلاء" جَمْعُ "ألي": النِّعْمة، سواء كانت مادِّية أو معنويَّة.



فَأَيُّ نِعَمِكَ يا إلهي أُحْصي عَدَداً وَذِكْراً؟[96] أَمْ أَيُّ عَطاياكَ أَقُومُ بها شُكْراً؟ وَهِيَ يا رَبِّ أَكْثرُ مِنْ أَنْ يُحْصِيَهَا الْعادُّوْنَ، أَوْ يَبْلُغَ عِلْماً بِهَا الْحافِظُونَ. ثُمَّ ما صَرَفْتَ وَدَرَأْتَ عَنِّي االلّهُمَّ مِنَ الضُرِّ وَالضَّرّاءِ، أَكْثَرَ مِمّا ظَهَرَ لي مِنَ الْعافِيَةِ وَالسَّرّاءِ[97].

وَأَنَا اَشْهَدُ يا إلهي[98] - بِحَقيقَةِ إيماني[99]، وَعَقْدِ عَزَماتِ يَقيني[100]، وَخالِصِ صَريحِ تَوْحيدي[101]، وَباطِنِ مَكْنُونِ ضَميري[102]، وَعَلائِقِ مَجارى نُورِ بَصَري[103]،

---

[96] فأنا – يا إلهي – في حيرةٍ من أمري، لا أدري كيفَ أبدأ؟ ومن أين أبدأ في عدٍّ وذِكْرِ نِعَمِكَ؟ كيفَ وأنْتَ القائِل "وإنْ تعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحصوها" (إبراهيم، ٣٤، النحل، ١٨)، لأنَّ عمليةَ الإحصاء تتطلَّب أنْ يتوافر في المُحصي: الطاقة والقُدْرة على القيامِ بالإحصاء من ناحية، والعِلْم والإحاطة بالشَّيءِ المحصى من ناحيةٍ ثانية، والتناهي في الأشياء المحصاة من ناحيةٍ ثالثة، حتى يتحقَّق الإحصاء وينتهي إلى نتيجة....وهذا كلُّه غير مُتوفِّر في المقام.

[97] وهذهِ نقطةٌ جديدة تُعقِّد عمليةَ الإحصاء وتجعلها مستحيلة بالفعل، وهو أنَّ ما دفَعْتَ عني - يا إلهي من سُوءِ حال أو فقر أو شِدَّة في بدنٍ أو أي حالة ضُر، أو ضيق نفْسي أو كآبة شديدة أو تشاؤُم وانقباض أو أي حالة من الضَّراء، وهي أمور لا أستطيع أنْ أُقدِّرها لأنَّها خفيَّة بطبيعتِها - أكثر مما يبدو لي من الصِّحة التَّامة والرَّخاء والمسرَّة.

[98] وأُخبِرُ خبراً قطعيَّاً عن معاينةٍ....(وسيُعلِن بعدَ قليل عن الأمر الذي يشهَد بهِ على نفسه).

[99] بكُنْه وخالِص اعتقادي القَلْبي الجازم.

[100] العَقْدُ من كلِّ شيء: إحكامُهُ وإبرامُهُ، والعزْم: إرادةُ الشيء وعَقْدُ النيِّة عليه، واليقين: العِلْم الذي لا شَكَّ معَهُ. والمقصود: أنِّي أشهَدُ - يا إلهي - بالمحكَم والمبرَم من إرادتي الجادَّة التي لا يشوُبها أيُّ تردُّدٍ أو شك.

[101] أشهَدُ - يا إلهي - بالخالِصِ غير المشوب من إيماني بكَ وحدَكَ لا شريكَ لك.



١٠٢ وأشهدُ بالخافي والمصون المحفوظ من نفْسِي.

١٠٣ البَصَرُ: ملكةُ الإبْصار، ويُطلَقُ على العَيْن، وعلى قُوَّةِ الإبصار، وعلى قُوَّةِ الإدْراك. ولئن كانَت العينُ آلة رؤية الأشياء، فالبَصَرُ أشملُ من ذلك، إذ لا يتُم الإحساس بالرُّؤية إلا في مركز المخ، ويتُم تفَهُّم المرئيات في مركزِ الإدراك. والبصَرُ ملكة ركَّزَها الله تعالى في الإنسانِ لتكون وسيلتَهُ للمعرفةِ والاهتداء. والمقصود: وأشهَدُ بما يتعلَّق بعمليةِ الإبْصار، من ألياف وأطرافٍ عصبيَّة تَسْري في المساراتِ البصريَّة إلى مركزِ الإبْصار في المخ (بعد أنْ شرَعَ بالشَّهادةِ من أعماقِ نفسِهِ، بدأ بالشَّهادةِ بأجزاءِ جسَدِهِ الشَّريف، وأوَّلُها الرَّأس وأجزائِهِ).

معلومات إضافية:

العينُ وإنْ كانَت آلةُ الإبْصار إلا أنَّ مهمَّتَها التقاطُ صوَرِ المرئيَّات التي تحمل من بعد خلال العصَب البصَري والمسارات (المشَعْشَعات) البصَريَّة إلى مركزِ الإبْصار في المخ، وبذا تتم الرُّؤية، ثم مركز الإدراك البصَري الذي يقوم بفَهْمِ الصُّورة. فالعينُ في الواقِع كآلة تصوير، وصُنِعَت آلاتُ التَّصوير على غِرارِ العَيْن. ووجود عينين يزيد من المجال البصَري، كما أنَّ الصُّورتين (واحدة من كلِّ عين) إذ تتطابقان فإنَّ هذا يُمكِّن من الإحساسِ بالبُعْد الثالث، وهو العُمْق، فليسَت الصُّورة التي تراها العينان مُسطَّحة كصورة آلة التَّصوير. والعين من الخارج تبدو كالكُرة وملمَسُها مطَّاط، وسُدْسُها الأمامي شفَّاف وهو القرَنيَّة، والباقي مُعتِم تُكوِّنهُ ثلاث طبقات هي الصَّلبة البيضاء المعتمة من الخارج، تليها الطَّبَقة الوعائيَّة لأنَّ عامَّتها أوعية دمويَّة، وهو تحتوي على صبْغة، وتتشكَّل أماماً إلى قُرْص القزحيَّة، وبه فتحة مستديرة هي الحدَقة أو البؤبؤ، الذي يَضيقُ أو يتَّسِع بتحَكُّم عضلات القزَحيَّة للتَّحكُّمِ في مدى الضَّوء الدَّاخل للعَيْن، ومن خَلْفِ القزَحيَّة تعطي الطَّبَقة الوعائيَّة الجسم الهدبي المتَّصل بلجامِ العدَسة، وبِهِ عضلات تشُدُّ اللِّجام أو ترخيهِ فترق العدَسة أو تسمُك للتكيُّف للرُّؤية من بعيدٍ أو من قريب، أما باقي الطَّبَقة الوعائيَّة فيبطن باقي كرة العَيْن فيما يُعرَف بالطبقة المشيمية. تبقى الطَّبَقة الدَّاخلية لغلافِ العَيْن وهي التي تُعرَف بالشَّبَكيَّة، وهي نظير الفيلم الحسَّاس في آلةِ التَّصوير، وتحتوي على النِّهايات الحسَّاسة للعصَب البَصَري بمركَّبَيْها:



وَأساريرِ صَفْحَةِ جَبيني[١٠٤]، وَخَرْقِ مَسارِبِ نَفْسي[١٠٥]، وَخَذاريفِ مارِنِ

الأعواد التي تعين الرُّؤية في الظَّلام، والمخاريط التي تُميِّز الألوان والتَّفاصيل الدَّقيقة. أما داخل العَيْن فيحتوي طبقة مائيَّة أمام الحدَقة وخَلْفَها فيما يُعرف بالخزانتين الأمامية والخلْفيَّة. ولهذا السَّائل دورة سيَّالة إنْ تعطَّلت ارتفعَ ضغطُ العَيْن فيما يُسمى مرض الجلوكوما أو أم الغلوق، ثمَّ العدَسة مشدودة بلِجام يتَّصِل بعضلات الجسم الهدبي، ومن خلفِها الجسْم الزُّجاجي، وهو هلامٌ شفَّاف يملأ كرةَ العين. وتعمَل العَيْنان معاً تُحرِّكهما عضلاتهما في تنسيقٍ دقيق. وتقَع صُور المرئيَّات التي في المجالِ البصَري الأيمن على نصفَي الشَّبَكتين الأيسرين، لأنَّ الألياف العصبيَّة الدَّاخلية في العصَب البصَري تعبُر إلى الجهة المقابلة خلال التقاسُم البَصَري، ومنهُ إلى الممر العصَبي البَصَري، فتلقى عند العُقْدة الرَّكبية الخارجية أطرافاً عصبيَّة أخرى تُسلِّمها الصُّورة التي تسري فيما يُعرف بالمشَعْشَعات البَصَرية إلى مركزِ الإبْصار في المخ في القِرْطاس المؤخّري الأيسر. وكذلكَ الحال بالنِّسبة للمجال البَصَري الأيسر، فإنَّ الصُّور منهُ تؤول إلى القرطاس المؤخّري الأيمن.

[١٠٤] الأسارير: الخطوط، صفحةُ الشَّيء: وجهَهُ، الجبين: ما فوق الصُّدْغ من يمين الجبْهة أو شمالها (الصُّدْغ: جانب الوجه من العين إلى الأذن). والمقصود: وأشهَدُ بالخطوطِ الظَّاهرة في الجزءِ العُلْوي من جبْهتي، وهو الجزءُ المعبِّر أمامَ النَّاس عن سريرَتي وباطني، من فرَحٍ أوسرورٍ أو حُزنٍ أوهَمٍّ أو تجَهُّمٍ أو استبشار.
[١٠٥] الخَرْق: الثُّقْب والمنفَذ، و"المسارب" جمع "مَسْرَب" وهو المخرَج. والمقصود: وأشهَدُ بفَتْحتَي الأنْف التي أتنفَّس من خلالِهما، وأقومُ بعمليَّتي الزَّفير والشَّهيق، وبسببِهما استمرُّ على قيْدِ الحياة (ورَدَ في المأثور أنَّها المنطقة التي تخرُج منها نفْسُ الإنسان عندَ موتهِ).

معلومات إضافية:
يتركَّبُ الأنْفُ - تحتَ غطاءَي الجِلْدي من الخارج والغِشائي من الدَّاخِلِ - من العَظْمةِ الأنْفيَّة والزائِدة الأنْفيَّة لعَظْمةِ الصُّدْغ تُكملها غضروفة أنْفيَّة سُفْلى ويفصِلُ بينَ الجهتين

عِرْنيني[١٠٦]، وَمَسارِبِ سِماخِ سَمْعي[١٠٧]، وَما ضُمَّتْ وَأطبَقَتْ عَلَيْهِ شَفَتايَ[١٠٨]،

الحاجزِ الأنْفي الغُضْروفي، أما الجناح حولَ المَنْخَرين فقابِلٌ للحركة، وبه كذلك غضاريف صغيرة. أما تجويف الأنْف على كلِّ جانب فيَفتَح من الخلْف في الحُلْقوم، وسَقْفُهُ هو الصَّحن الغِرْبالي الذي تجتازُهُ أعصابُ الشَّم إلى المخ، وأرضيَّتَهُ عَظْمَةُ الحنَك وحائطُهُ الدَّاخلي الحاجز الأنْفي الغُضْروفي وزوائد عَظميَّة أُخرى، بينما حائِطُهُ الجانبي الوَحْشي تُساهِم في تكوينِهِ أجزاء من ستِّ عظام مجاورة. وتبرُز من الحائط الوَحشي زوائد محارية منشئة أربعة ممرَّات ردبية. وتفتَح في تجويفِ الأنْف القناة الدَّمعية من العَيْنِ وقناة يوستاكيو من الأُذن وفتحات الجيوب الأنْفيَّة المحيطة بالأنْف وهي أربع على كلِّ جانب. أما الغِشاء المخاطي المبطن للأنْف فهو جزآن: شَمِّي في الأعلى، وتَنَفُّسي في الأسفل، ويعمَلُ الغشاء التنفُّسي على ترطيبِ هواء النَّفَس وتلطيف حرارتَهُ، كما أنَّ ما بهِ من شَعْرٍ يحجُزُ ما عُلِقَ بالهواءِ من جُسيماتٍ وأتربة. أما الغِشاء الشَمِّي فمُزوَّدٌ بشُعيرات شَمِّية، هي نهايات عصبيَّة للعصَبِ الشَمِّي، إذ تدخُل الرَّوائح على صورةٍ غازيَّة، فتذُوبُ في السَّائِلِ حولَ هذه الشُّعيرات، ومن ثَمَّ يُؤثِّر فيها بما يبعَث خلالَها تياراً، وتخترق الأعصاب السَّقْف الغِرْبالي للأنْف، فتُشَكِّل العَصَب الشَمِّي الذي يحمِل هذا الإحساس بالرَّوائح إلى مركز الشَّم بأسفلِ المخ. ومن المعروف أنَّ حاسَّة الشَّم وثيقةُ الصِّلة بحاسَّةِ الذَّوْق، فإنَّ العصَب الشَمِّي هو الذي يحمِل إشارات نكهة الطَّعام، وفُقدان القُدْرة على الشَّم حالةٌ مرضيَّة تنشأُ في الأنْفِ أو في المسار العَصَبي الشَّمِّي.

[١٠٦] الخذْروف: عُودٌ أو قصَبَة مَشْقوقة يُفرَض في وسَطِه ثم يُشَدُّ بخيط، فإذا أُمِرَّ دارَ وسمعتَ لهُ حفيفاً. لكن كلمة "خذاريف" لعلَّها تصحيفٌ لـ "حذافير"، جمعُ "الحِذْفار"، و"الحَذْفور" هو الجانِب والنَّاحية، والمارِن: ما لانَ من الأنْفِ وزادَ عن القصَبَة، والعِرْنين: أوَّلُ الأنْف حيثُ يكون فيهِ الشَّم. والمقصود: وأشهَدُ برأسِ أَنْفي، وهو الجزءُ الذي يُلامِسُ الأرضَ في السُّجود، وهو جزءٌ شريفٌ عُرْفاً، ويُرغَم في التُّرابِ عندَ الإذلال، ويشْمَخُ بهِ الإنسانُ عندَ التكبُّر.



١٠٧ "مسَارِب" جمعُ "مَسْرَب" هو المخرَج، الصِّماخ: قناةُ الأذن التي تُفضي إلى طَبْلَتِهِ (والسِّين لُغة فيه). والمقصود: وأشهَدُ بفَتْحَتَي أُذْني التي أسْمَعُ بهما الأصوات.

معلومات إضافية:

الأُذن أداةُ السَّمْع في الإنسان. ومُكوِّنات الأُذن السَّمْعية تبدأ بالأُذنِ الخارجية، وهي صيوان الأذن، الذي يُفضي إلى الصِّماخ السَّمعي المنتهي إلى طبْلةِ الأُذن، وهي جدارٌ بين الأُذن الخارجية والأُذن الوُسْطى. فإذا طرَقَ صوتٌ الطبْلَةَ اهتزَّت فحرَّكَت عِظاماً ثلاثاً في الأُذن الوُسْطى، هي المطرَقة والسِّندان والركّاب، والأخيرة تقَع على الفَتْحةِ التي بينَ الأُذن الوُسْطى والأُذن الدَّاخلية والمعروفة بالشُبَّاك الدِّهْليزي. فإذا اهتزَّت الركّاب أرسلَت رعدَة في السائِلِ الليمفي الذي يملأ المركب السَّمْعي للأُذنِ الدَّاخلية والذي اسمه القَوقعة، وتُحرِّك الرَّعْدَة بدورِها شعرات سَمْعيَّة موصولة بمحاوير العصَب السَّمْعي، الذي يَسْري فيه تيارٌ عصبيٌّ إلى مركزِ السَّمْع بالمخ ليُترجِمَهُ إلى صوْت، ثم لمركزِ الإدراك السَّمْعي ليفهَم ماهيَّة ذلكَ الصَّوْت. والمدى السَّمْعي للأُذن البشريَّة هو ما بين ست عشر ألف ذَبْذَبة إلى عشرين ألف ذَبْذَبة في الثَّانية، أما موجات الصَّوْت دون ذلك أو أعلى منهُ فلا يسمَعها الإنسان، وقد تسمَعها بعض الحيوانات.

١٠٨ الشَّفَة: الجزْءُ اللَّحْمي الظَّاهر الذي يستُر الأسنان، وهما شفَتان. والمقصود: وأشهَدُ بالأجزاءِ التي لا تظهَر عندما أطبِق شفَتاي، والتي تنطوي على ما أحتاجُهُ في عمليَّة النُّطق بالكلام والتذُّوق والأكل والشُّرب.

معلومات إضافية:

الشَّفَتان العُليا والسُّفلى ثَغْر الفم المتحكِّم في إبقائه مُغلَقاً وفي حبْس ما فيه عن الخروج، وكذلك فتحه للطَّعامِ والشَّراب والكلام وغيرها، والعضلات التي تُكوِّن الشَّفتين كذلك هي ضِمن عضلات الوجْه، فهي بتغيير هيأتها تُغيِّر القَسَمات لرَسْم تعبير معيَّن. ويبطن الشَّفتين من الدَّاخل الغِشاء المخاطي المبطن لتجويف الفَم، ولكنَّهُ يتدَرَّج إلى الظهارة

وَحرَكاتِ لَفظِ لِساني[109]، وَمَغْرَزِ حَنَكِ فَمي وَفَكّي[110]، وَمَنابِتِ أضْراسي[111]،

الحرشفية متعدِّدة الطَّبقات على الجزءِ الخارجي، كالتي تُغطِّي الجلد لولا أنَّها لا تحوي غُدَداً وأنَّ لونُها - خاصَّة في أهلِ الجلْد الأبيض - تشوبُهُ الحمرة لأنَّ رقَّة بشرَها تشُفُّ عما تحتَها من أوعيةٍ دمويَّة. أما الكُتلة العضَليَّة التي تكون الشَّفتين، فمِن بين عضلاتها عاصِرة الفَم، وهي العضَلَة الفَمَويَّة الدائرة، وتضُمُّ الفَمَ إلى دائرةٍ صغيرةٍ كما يحدُث عندَ الصَّفير مثلاً، وفواتِح الفَم، وهي أربعة، هي رافعة الشَّفة العُليا، ورافعة زاوية الفَم، وخافِضة الشَّفة العُليا، وخافِضة زاوية الفَم، ولكلٍّ طرفٌ مُثبَّت في العَظْم وطرفُ في مادَّة الشَّفة. ومن رافعة الشَّفة العُليا تمتدُّ ألياف عضليَّة كذلكَ إلى الفتحةِ الخارجية في الأنف، وتُسبِّب اتِّساعَها كما في حالاتِ التنفُّس الناشِط لتمرر مزيداً من الهواء. وتتَّصِل عضلات الشَّفتين قُرب زاوية الفَم بعضلات العضَلة المبوقة الموجودة في الخد. وعند التخلُّق تتركَّب الشَّفة العُليا من التحام ثلاث أجزاء: أوسط وجانبين، فإذا فشلَ الالتحام ظلَّت مشقوقة فيما يُعرف بالشَّفة الأرنبية على جانب أو الجانبين.

[109] اللَّفْظ: ما ينطق بهِ من كلِمات، اللِّسان: عضلةٌ مستطيلةٌ تتحرَّكُ في الفَمِ عندَ الكلام ومضْغِ الطَّعام، وبها يكون التذوُّق والبَلْع. والمقصود: وأشهَدُ بحركاتِ لِساني حينَ أتلفَّظُ بِهذه الكلمات.

معلومات إضافية:

اللِّسانُ عضوٌ عضليٌّ لهُ عضلات داخلية فيه تستطيع أنْ تُغيِّر شكلَهُ، أما عضلاتُهُ الخارجية فتتَّصل أطرافُها بعَظْم الفكّ السُّفلي وبالعظمةِ اللامية التي تعلو الحُنْجرة وبالزائدة العَظْميَّة الإبْرية في أسفلِ مؤخَّر الجُمْجُمة وبلسانِ المزْمار وبسَقْف الحَنَك، ولهذا فهي تُغيِّر وضْعَ اللِّسان وشكلهُ أيضاً، وجميعُها يُحرِّكها العصَب تحت اللِّساني إلا العضلة الحَنَكيِّة اللِّسانية فأعصابُها مُستمدَّة من العصَبين الدِّماغيين العاشر والحادي عشر. وللِّسان جزءٌ فميٌّ وجزءٌ حُلْقومي هو ثُلثُه الخلفي، يُميِّزهما أثر أخدود على هيئة ^ على قمَّته حُفرة كانت في الجنين مبدأ تكوُّنِ الغُدَّة الدرَقيَّة. ويُثبِّت اللِّسان إلى أرضيةِ الفَم رَباطٌ أو لُجيمٌ طولي. ويُغلِّف



وَمَساغِ مَطْعَمي وَمَشْرَبي[112]، وَحِمالَةِ أُمِّ رَأْسي[113]، وَبُلوغِ بارِعِ حبائِلِ

اللّسان غشاءٌ مخاطي: ناعمٌ على سطحِه الأسفل، خشنٌ على سطحِه الأعلى، إذ الثُلُثان الأماميان مُزوَّدان بحَلَمات الذوُّق والثُلُث الخلْفي كذلك بتجمُّعات لمفاويَّة عُرِفَت كذلك باللّوزةِ اللّسانية. ولكلِّ إحساس أو مذاق نهاياتُهُ العصَبيَّة المتخصِّصة. وأعصابُ الإحساس للّسان هي العصَب اللّساني (مشتملاً على العصَبِ الحَبْلي الطَبْلي الأذني للثُلُثين الأماميَّيْن والعصَب اللّساني الحَلْقي الذي يحمِل المذاق للثُلث الخَلْفي) ويُمارس وظيفتَي الإحساس العام والإحساس بالمذاق معاً. وعلى اللّسان غُدَد لُعابية دقيقة. ولكن إحداها كبيرة، وموقِع الغُدَد اللُّعابية على كلِّ جانب من السَّطحِ الأسفل. وعلى السَّطحِ الأعلى للثُلُثَين الأماميين أخدودٌ طوليٌّ يرمُزُ إلى منشَإِهِ الزَّوجي من نصفين يلتَحِمان.

[110] المغرَس: موضِعُ تثبيث الشَّجر ونحوِه في الأرض، الحنَك: ما تحت الذَّقْن، الفَكُّ: مغرَس الأسنان. والمقصود: وأشهَدُ بمنطقةِ بداية الفَكّ من يمينِ ويسارِ الوَجْه.

[111] "أضراس" جمْعُ "ضِرْس" وهو السِّنُ الطاحِن. والمقصود: وأشهَدُ بالمنطقةِ التي تنبُتُ فيها أسْناني الطَّاحِنة.

[112] المسَاغ: مجرى الطَّعام والشَّراب من الحُلقوم مروراً بالمرئ.

[113] الحمَالة: ما يتكفَّل بحَمْلِ كذا، أُمُّ الشَّي: أصلُهُ. والمقصود: وأشهَدُ بالمنطقةِ التي تتكفَّل بحَمْلِ أصْل رأسي من أعصابٍ وأوردةٍ وشرايين وغيرِها. (لاحظ أنَّهُ بدأ بأجزاءِ الرأْس والآن يبدأ بالنُّزول تدريجياً إلى أجزاءِ الجسَد).

معلومات إضافية:

منطقة الرأس تتضمَّن أيضاً الغُدَّة النُّخامية، وهي غُدَّة صغيرة تزن حوالي ٥٧ جرام في الإنسان البالغ، تتدَلّى من السَّطح الأسفل للمُخ وتستقِر في داخلِ فراغٍ عظْمي في قاعِ الجُمْجُمة، يقَع بينَ المخ وسَقْف الحَلق، وتتكوَّن من فصَّين كبيرين بينَهُما فصٌّ صغير، ويؤكِّد العُلَماء على أنَّ هذهِ الغُدَّة تُسيطر على إفراز مُعظم الغُدَد الأخرى والكيان

عُنُقي[١١٤]، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْه تامُورُ صَدري[١١٥]، وَحمائِلِ حَبْلِ وَتيني[١١٦]، وَنياطِ حِجابِ قَلْبي[١١٧]، وَأَفْلاذِ حَواشي كَبِدي[١١٨]، وَما حَوَتْهُ شَراسيفُ أَضْلاعي[١١٩]،

الإنساني نفسه، لذلك يُسمِّيها العُلَماء بالغُدَّة ذات السِّيادة، ويرونَ أنَّها - مع بقيةِ الغُدَد - لها علاقة مباشرة بتحديد شخصيَّة الإنسان.

١١٤ وأشهَدُ بالمنطقةِ التي تنتهي إليها عُروق عُنُقي (نهاية العُنُق وبداية الجسَد).

١١٥ التَّامُور: القَلْب أو غِلافُهُ. والصَّدْر: الجزءُ الممتَد من أسفلِ العُنُق إلى فضاءِ الجوْف، وسُمِّي القلْبُ صَدْراً لحُلوله به. والمقصود: وأشهَدُ بكُلِّ ما اشتملَ عليهِ قلبي المستقِر في صَدْري، أو: وأشهَدُ بكُلِّ ما اشتملَ عليهِ صَدْري.

معلومات إضافية:

صدرُ الإنسان يحوي: القلْبُ والرِّئتين والقصَبَة الهوائيَّة وشعبتيها، ويمرُّ فيهِ المريء ليبلُغ المعْدَة في البَطْن، والأوعية الدَّمويَّة والأعصاب والأغشية المتَّصِلة بهذهِ الأعضاء.

١١٦ الوَتين: الشَّريان الرَّئيسي، الذي إذا انقطَعَ، ماتَ صاحِبُهُ، وهو الشَّريان الذي يُغذِّي الجسم بالدَّم الخارج من القَلْب، يقولُ تعالى: "ولو تقوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل، لأخَذْنا منهُ باليَمين، ثم لقَطَعْنا منهُ الوَتين" (الحاقة، ٤٤-٤٦). والمقصود: وأشهَدُ بالأوردةِ المرتبطة بشَرياني الرَّئيسي، أو: أشهَدُ بما يحمِل شرياني الرَّئيسي.

١١٧ القَلْب: عضوٌ عضليٌّ أجوفٌ يستقبِلُ الدَّمَ من الأوردةِ ويدْفَعهُ في الشَّرايين، قاعِدَتهُ إلى أعلى مُعلَّقة بنِياطٍ في الجهةِ اليُسرى من التجويفِ الصَّدْري، وبهِ تجويفان: يساري بهِ الدَّم الأحمر، ويميني بهِ الدَّمُ الأزرق المحتاج إلى التَّنْقية، وبكُلِّ تجويف تجويفان فرعيان يفصِلُ بينَهُما صمَّام، ويُسمَّى التجويف العُلْوي: الأُذَين، والتجويف السُّفلي: البُطَين. والمقصود: وأشهَدُ بتلكَ النِّياط التي يتعلَّق بها القَلْب.



وَحِقاقُ مَفاصِلي[120]، وَأطرافُ أَنامِلي[121] وَقَبضُ عَوامِلي[122]، وَلَحْمي وَدَمي،

معلومات إضافية:

القَلْبُ التركيبي في البدَن هو المضخَّة العضَليَّة القائمة على الدورةِ الدَّموية طول حياة الإنسان بدون توقُّف، وهو مركَّبٌ من أربعِ حُجُرات، هي أُذَين يعلو بُطيْناً عن يمينٍ وشِمال، وبينهُما حاجز، فإذا انقبَضَ البُطيْنان دفعَ الأيمن بالدَّمِ المختزل إلى الرِّئتين ليتزوَّد بالأوكسجين ودفعَ الأيسر بالدَّمِ المؤكسد إلى أنحاءِ الجسم ليُزوِّد الأنسجة بالأوكسجين، ويعود دَمُ الرِّئتين مؤكسداً إلى الأُذَيْن الأيسر عبر الأوردة الرِّئوية ليُمرِّرهُ إلى البُطَيْن الأيسَر، بينما يعود الدَّم المختزل من الجسْمِ إلى الأُذَيْن الأيمن عبرَ الوَريد الأجوف العُلْوي ليُمرِّره إلى البُطَيْن الأيمن، وتتحكَّم صمَّامات القَلْب في اتجاهِ الدَّم إلى مسارهِ السَّوي في اتجاهٍ واحد، فلا يرتدّ عند انبساطِ القَلب أو انقباضِهِ. واستعمالُ "القَلْب" بالمعنى المعنوي أو المجازي شائعٌ في كلِّ اللُّغات هو الجاري في المصطلح القرآني. وأساسُ ذلك الصِّلة الوثيقة بين القَلْب العضَلي وبين المشاعر والعواطف والأحاسيس.

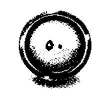
[118] "أفلاذ" جمع "فلذة": القطعة من الكبِد واللَّحم، "الحواشي" جمْعُ "حاشية": الطَّرَف أو الجانب من كلِّ شيء، الكبِد: عضوٌ في الجانبِ الأيمن من البَطْن تحت الحجاب الحاجز، لهُ عدَّة وظائف أظهرها إفراز الصَّفراء. والمقصود: وأشهدُ بقِطَع كبِدي، أو: أشهَدُ بالقِطَع الموجودة في أطرافِ كبِدي.

[119] "شراسيف" جَمْعُ "شرْسَف": الطرَّفُ الليِّن من الضِّلْع مما يلي البَطْن، والضِّلْع: عظمٌ من عِظام قفَص الصَّدْر مُنحنٍ وفيهِ عِرَضٌ. والمقصود: وأشهَدُ بالأطرافِ اللَّينة من عظامِ قفص الصَّدْر.

[120] "حِقاق" جَمْعُ "حِق": وهو ما كانَ من الإبل ابن ثلاث سنين وقد دخَلَ في الرابعة، وقد سُمِّي بذلك لاستحقاقه أنْ يُحمَل عليهِ وأنْ يُنتفَع به. المفْصَل: مُلتَقى كل عَظْمين من الجسَد. والمقصود: وأشهَدُ بما يحمِلُني أو أنتفعُ بهِ من كلِّ مِفْصَل من مفاصِلي.

[121] الأنامِل: رؤوس الأصابِع.

[122] قَبْضُ العوامِل هي - على ما يبدو - المنطقة التي لا تظهَر عندما يقبض الإنسانُ أصابِعَهُ. بناءً عليه يكون المقصود: وأشهَدُ بالمنطقةِ التي تُخفيها أصابِعي من باطِنِ كفَّيا



وَشَعْري وَبَشَري[١٢٣]، وَعَصَبي[١٢٤] وَقَصَبي[١٢٥]، وَعِظامي وَمُخّي[١٢٦] وَعُرُوقي[١٢٧]، وَجَميعُ جَوارِحي[١٢٨]، وَمَا انْتَسَجَ عَلى ذلكَ أيّامَ رَضاعي[١٢٩]، وَما أقلّتِ الأَرْضُ منّي[١٣٠]، وَنَوْمي[١٣١] وَيقَظَتي[١٣٢] وَسُكُوني[١٣٣] وَحرَكاتِ رُكُوعي وَسُجُودي - أنْ[١٣٤] لَوْ حاوَلْتُ وَاجْتَهَدْتُ[١٣٥] مَدَى الأَعصارِ[١٣٦] وَالأَحْقابِ[١٣٧] لَوْ عُمِّرْتُها[١٣٨]

عندما أقبِضُها. لكن من معاني العوامل: الأرْجُل. بناءً عليه يكون المقصود: وأشهَدُ بالمنطقة التي يقبِض ويُمسك جِسْمي من خلالِها برِجْلي....والله أعلَم.

[١٢٣] البَشَر: ظاهِر جِلْد الإنسان.

[١٢٤] العصَب: شبهُ خيوط بيضٍ يَسْري فيها الحِسُّ والحركة من المخِّ إلى البدَن.

[١٢٥] القصَب: شُعَبُ الرِّئة، يُطلَقُ أيضاً على كلِّ عظمٍ مستدير أجوف ذي مُخ.

[١٢٦] المخ: المادَّة الموجودة داخِل العَظْم، وقد يُطلَق أيضاً على الدِّماغ. لكن المقصود هنا: أشهَدُ بالمواد الموجودة داخِل عِظامي.

[١٢٧] العِرْق: مجرى الدَّم في الجسَد.

[١٢٨] "الجوارح" جمْعُ "جارِحة": العضو العامِل من أعضاءِ الجسَد، كاليَد والرِّجل. والمقصود: وأشهَدُ بجميعِ أعضاء جسَدي العامِلة، مثل يدايَ ورِجلاي.

[١٢٩] وأشهدُ بالمكوِّنات الأساسيَّة التي قامَ على أساسِها جسَدي أيامَ رِضاعي.

[١٣٠] أقلَّ الشَّي: حمَلَهُ ورفعَهُ. والظاهر أنَّ المقصود: وأشهَدُ بباطِنِ قدَماي (لو كنتُ واقفاً)، أو: وأشهَدُ بالأجزاءِ التي تَحْمِلها الأرضُ من جِسْمي، كالجزْءِ الخَلْفي من جِسْمي، أو جانبَي الأيمن أو الأيسر (لو كنتُ مستلقياً).

[١٣١] النَّوم: فترة راحة البدَن، يغيبُ خلالَها الوعي جُزئياً أو كليًّا، وتتوقَّف فيها جزئياً الوظائف البدَنيَّة.

[١٣٢] اليقظة: الانتباه من النَّوم أو خلاف النَّوم.

[١٣٣] السُّكون: التوقُّف عن الحركة، وهدوء النَّفس بعدَ الاضطراب.

[١٣٤] هنا يريد أنْ يشرَع ببيان موضوع الشَّهادة. يعني: وأنا أشهَدُ يا إلهي - بكلِّ جُزْءٍ من أجزاءِ بدني - أنْ لو حاولتُ واجتهَدْتُ....إلخ.

أنْ أُؤَدِّيَ شُكْرَ واحِدَة مِنْ أَنْعُمِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ذلكَ الاّ بِمَنِّكَ، الْمُوجَب عَلَيَّ بِهِ شُكْرَكَ أَبَداً جَديداً[139]، وَثَناءً طارِفاً عَتيداً[140]. أجَلْ وَلوْ حَرَصْتُ أنا وَالْعادُّون مِنْ أنامِكَ[141]، أَنْ نُحْصِيَ مَدَى إنْعامِكَ، سالِفه وَآنِفه[142] ما حَصَرْناهُ عَدَداً، وَلا أَحْصَيناهُ أَمَداً[143]، هَيْهاتَ[144] أنّى ذلكَ وَأَنْتَ المخْبِرُ[145] في كِتابِكَ النَّاطِقِ، وَالنَّبأ الصَّادِقِ، "وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها"[146]، صَدَقَ كِتابُكَ اَللّهُمَّ وَانْباؤُكَ، وَبَلَّغَتْ أَنْبِياؤُكَ وَرُسُلُكَ، ما أَنْزَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَحْيِكَ، وَشَرَعْتَ لَهُمْ وَبِهِمْ مِنْ

---

[135] الاجتهاد: بذْلُ الوسْع والطاقة.

[136] مدى الأعصار: على مرِّ العُصُور والأزْمان الطَّويلة.

[137] "الأحْقاب" جَمْعُ "حُقُبْ": المدَّة الطَّويلة من الدَّهر.

[138] لو قُدِّرَ لي أنْ أعيشَها. ويُقدِّرها علماءُ الطبيعة اليوم بمليارات من السِّنين.

[139] أنا أشهَدُ يا إلهي - بكلِّ جُزْءٍ من أجزاءِ كياني ووجودي - أنْ لو قُدِّرَ لي أنْ أعيشَ العصور والأزمان الطَّويلة، واجتهَدْتُ فيها وبذَلْتُ غاية وسعي، حتى أشكُر، ولو نعمة واحدة من نِعَمِك، ما استطعتُ ذلكَ أبداً، إلا في حالةٍ واحدة، وهو أنْ تمُنَّ أنتَ عليَّ بتلكَ الاستطاعة على الشُّكر. لكن حتى هذه الحالة - عندما تمُنَّ عليَّ بالاستطاعةِ على شُكْرِ نعمة واحدة - تتطلَّبُ منِّي شُكراً جديداً، لأنَّك أقدَرْتني على الشُّكر.

[140] الطَّارف العتيد: المستحدَث الحاضِر.

[141] وهذا لا ينطبق عليَّ أنا فقط يا إلهي، بل العجز مُتحقِّق حتى لو حرَصَ معي جميع من على الأرض من الخَلْق على عَدِّ نعمكَ علينا.

[142] السَّالف: الماضي والسَّابق المتقدم، الآنف: الماضي القريب أو أوَّل هذهِ السَّاعة.

[143] الأمَد: الغاية والنِّهاية.

[144] ما أبعد ذلك.

[145] كيفَ يتحقّق ذلك؟! وأنتَ القائل...

[146] (إبراهيم، ٣٤، النحل، ١٨).



دينكَ. غَيْرَ أَنّي يا إلهي[١٤٧] أشْهَدُ بجُهْدي وَجدّي، وَمَبْلَغِ طاعَتي وَوُسْعي، وَأَقُولُ مُؤْمناً مُوقناً، اَلْحَمْدُ للهِ الَّذي لَمْ يَتَّخذْ وَلَداً فَيَكُونَ مَوْرُوثاً[١٤٨]، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في مُلْكه فَيُضادَّهُ فيما ابْتَدَعَ[١٤٩]، وَلا وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ[١٥٠] فَيُرْفِدَهُ فيما صَنَعَ، فَسُبْحانَهُ سُبْحانَهُ، لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا[١٥١] وَتَفَطَّرَتا، سُبْحانَ اللهِ الْواحِدِ[١٥٢] الأَحَدِ[١٥٣] الصَّمَدِ[١٥٤] الَّذى لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً

---

[١٤٧] رغم معرفتي يا إلهي بعَجْزي عن شُكْرِ ولو نعمَة واحدة من نِعَمِك، سأحاول أنْ أشهَد شهادة متواضِعة تتناسَب مع حالي وطاقتي المحدودة، فأقول وأنا في حالِ تصديق قلبي جازم واطمئنان: ....

[١٤٨] الحمدُ للهِ الذي لم يتَّخذ ولَداً ليكون هذا الولَد وارثاً لله، لامتناعِ مجانسَتِه .

[١٤٩] الحمدُ للهِ الذي لم يكُن لهُ شريكٌ في مُلكِهِ فيُنازعهُ في خَلْقِه. قال تعالى "وما كانَ معَهُ من إلهٍ إذاً لذهَبَ كلُّ إلهٍ بما خلَقَ ولعلا بعضُهُم على بعضٍ سبحانَ اللهِ عما يصِفون" (المؤمنون، ٩١).

[١٥٠] أي الحمْدُ لله الذي لم يكُنْ لهُ وليٌّ يُواليهِ المعونة من أجلِ ذلَّة يدْفَعها عنهُ. قالَ تعالى "وقُلْ الحمْدُ للهِ الذي لم يتَّخذ ولَداً ولم يكُنْ لهُ شريكٌ في الملْكِ ولم يكُنْ لهُ وليٌّ من الذُلِّ وكبِّرْهُ تكبيراً" (الإسراء، ١١١).

[١٥١] "لو كانَ فيهما آلهة إلا الله لفسدَتا" (الأنبياء، ٢٢).

[١٥٢] الواحِد: لا شبيهَ لهُ ولا نظير.

[١٥٣] الأحَد: بسيط الحقيقة لا ترَكُّبَ فيه. ومثالٌ بسيطٌ لتقريب التمييز بين "الأحَد" و"الواحِد": فأنتَ تارةً تقول "اللهُ أكبر من كلِّ شيء"، وتارةً أُخرى تقول "اللهُ أكبر". في الحالة الأولى أنتَ تتحدَّث عن اللهِ تعالى وعن الأشياء، وتُقايس بينَ اللهِ تعالى وبين الأشياء، ثمَّ تقول أنَّهُ تعالى أكبر من كلِّ الأشياء، بمعنى أنْ لا شبيهَ لهُ ولا نظير (= واحد). في الحالة الثانية أنتَ تتحدَّث عن كونِ الله تعالى أكبر، ورغم أنَّ طبيعةَ اللُّغة - في صيغةِ التَّفضيل - تتطلَّب أنْ تُكمِل العبارة بمقايستِهِ تعالى مع أشياءٍ أُخَر، إلا أنَّك تلتزمُ الصَّمْتَ، على أساسِ



أحَدٌ[155]، اَلْحَمْدُ للهِ حَمْداً يُعادِلُ حَمْدَ مَلائِكَتِهِ الْمُقَرَّبينَ، وَأنبِيائِهِ الْمُرْسَلينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلى خِيَرَتِهِ مُحَمَّد خاتَمِ النَّبِيّينَ، وَآلِهِ الطَّيِّبينَ الطّاهِرينَ الْمخلَصينَ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ اندَفَعَ في المسألةِ واجتَهَدَ في الدُّعاء، وقال وعيناهُ سالتا دموعاً :

اَللّهُمَّ اجْعَلْني أخْشاكَ[156] كَأنّي أراكَ[157]، وَأسْعِدْني بِتَقواكَ[158]، وَلا تُشْقِني

أنَّهُ تعالى لا يُقاسُ بشيءٍ حتى على مستوى المقارنة الذّهنية، لأنَّهُ لا متناهي حقيقي، فتقول أنَّ الله أكبر وكفى (= أحد).

[154] الصَّمَد: الذي يقصُدهُ الخلْق بحوائِجهم فيقضِيها لهم.

[155] أنظُر سورة الإخلاص (أو التوحيد).

[156] الخَشْيَة: الخوف بتعظيمٍ ومهابة.

[157] وردَ في وصيةِ رسول الله (ص) لابن عباس: "اعبُد اللهَ كأنَّكَ تراه، فإنْ لم تكُنْ تراهُ فإنَّهُ يراك". وفي حديثِ الأصْبَغ بن نُباتة أنَّهُ قامَ إلى أمير المؤمنين (ع) رجلٌ يُقالُ لهُ "ذِعْلب"، فقال: يا أميرَ المؤمنين هل رأيتَ ربَّك؟ فقال (ع): ويْلَكَ يا ذِعْلب، لم أكُن بالذي أعبُدُ ربّاً لم أرَهُ. قال: فكيفَ رأيتَهُ؟ صِفْهُ لنا. قال (ع) : ويْلَكَ لم ترَهُ العيون بمُشاهَدَةِ الأبصار، ولكن رأتْهُ القلوب بحقائقِ الإيمان. فاللهُ سبحانَهُ – بالتأكيد - لا يُرى بالحواس، يقولُ تعالى "لا تُدْركُهُ الأبصار وهو يُدرِكُ الأبصارَ وهو اللَّطيفُ الخبير" (الأنعام، ١٠٣). لكن عندما يبدأ الإنسان ينظُر إلى المخلوقات كآياتٍ دالَّة على الله (ويرى سُنَنَهُ وقوانينَهُ القاهرة)، فإنَّهُ يراها وكأنَّها هي الظّاهر والله تعالى باطنٌ فيها، وكلّما ازدادَت بصيرة الإنسان، ضعُفَت هذه المخلوقات عن القيام بدور الظّاهر، وبدا لهُ زوالها وفناؤها، وبدا الله سبحانَهُ وكأنَّهُ ليسَ باطناً فيها فحَسْب، بل هو الظّاهر أيضاً، يقولُ

بِمَعْصِيَتِكَ[١٥٩]، وَخِرْ لي فى قَضائِكَ[١٦٠]، وَبارِكْ لي في قَدَرِكَ[١٦١]، حَتَّى لا أُحِبَّ تَعْجيلَ ما أخَّرْتَ وَلا تَأخيرَ ما عَجَّلْتَ[١٦٢].

تعالى "كُلُّ منْ عليها فانْ ويبقى وَجْهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرام" (الرحمن، ٢٦-٢٧)، "كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجْهَهُ" (القصص، ٨٨)....هنا يعبُد الإنسانُ ربَّهُ كأنَّهُ يراه.

١٥٨ اجعلني سعيداً بكوني مُتَّقياً لك. والتَّقوى من وقى الشيء، أي صانَهُ وستَرَهُ عن الأذى وحماهُ، واتقى فلانٌ اللهَ يعني صانَ نفسَهُ وحماها من غضَبِ الله وعقابِهِ، فتجنَّبَ نواهيه وامتثلَ لأوامره.

١٥٩ الشَّقي هو مَنْ ساءَ حالُهُ واشتدَّ عناؤُهُ. وقد يسوء حال الإنسان ويشتد عناؤهُ لعدَم الامتثال لأوامرِ الله الإرشادية التي لا إلزامَ فيها (فضلاً عن أوامرِه المولوية الملزمة). الشَّقاء – إذن – قد ينشأ من عصيان أوامر الله الإرشادية. لذا حذَّرَ اللهُ تعالى آدم (ع) بقولِه "إنَّ هذا عدَوٌ لكَ ولزوجِكَ فلا يُخرجَنَّكُما من الجنةِ فتشقى" (طه، ١١٧)، إلا أنَّ آدم عصى "ربَّهُ فغوى" (طه، ١٢١).

١٦٠ واجعل لي الخيرَ في قضائِك. ومعنى القضاء الإلهي بشأنِ حوادث العالَم هو أنَّ هذه الحوادث توفَّرَت على الحتْميَّة والقطعيَّةِ من قِبَلِ ذاتِ الحق، فحُكْمُ الحقّ القطعي بشأنِها هو كذا وكذا. والقضاءُ حتْميٌّ ولا يتغيَّر، فنِسبة وجود الأشياء إلى عِلَلِها التَّامة ضروريَّة وحتْميَّة.

١٦١ واجعل البركةَ والنَّماءَ في قدَرِك. ومعنى القدَر الإلهي هو أنَّ الأشياء اكتسبَت مقياسَها من قِبَلِ الحق. والقدَر غيرُ حتْمي وقابِل للتغيير؛ فنِسبة وجود الأشياء إلى ذاتِها وعِللها الناقصة غير ضروريَّة، أي ممكنة.

١٦٢ وهذه ثقافة قرآنية، بيَّنَها تعالى في قولِه "لكيلا تأسَوا على ما فاتَكُم ولا تفرَحُوا بما آتاكُم واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مختالٍ فخور" (الحديد، ٢٣). ولعلَّ الذي أبطأَ عن الإنسان هو خيرٌ له لعلْمِ الله بعاقبة الأمور، "وعسى أنْ تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكُم وعسى أنْ تُحبُّوا شيئاً وهو شرٌ لكُم واللهُ يعلَمُ وأنتُم لا تعْلَمون" (البقرة، ٢١٦).



اَللّٰهُمَّ اجْعَلْ غِنايَ فِى نَفْسي[١٦٣]، وَالْيَقينَ فِى قَلْبي[١٦٤]، وَالإخْلاصَ فِى عَمَلي[١٦٥]، وَالنُّورَ في بَصَري[١٦٦]، وَالْبَصيرَةَ في ديني[١٦٧]، وَمَتِّعْني بِجَوارِحي[١٦٨]، وَاجْعَلْ سَمْعي وَبَصَرِيَ الْوارِثَيْنِ مِنّي[١٦٩]، وَانْصُرْني عَلى مَنْ ظَلَمَني[١٧٠]، وَأَرِني فيهِ ثَأْري وَمَآرِبي[١٧١]، وَأَقِرَّ بِذلِكَ عَيْني[١٧٢]. اَللّٰهُمَّ اكْشِفْ كُرْبَتي[١٧٣]، وَاسْتُرْ عَوْرَتي[١٧٤]،

---

[١٦٣] حتى أُدرك أنَّ بحرَ المعرفة موجودٌ في أعماقِ ذاتي، وليس موجوداً على ألسُنِ الآخرين وفي بطونِ الكتُب...واجعلني من أولئكَ الذين يشْعُرونَ بالاستغناءِ عن الناس لا يَمُدُّونَ يدَ الحاجة للآخرين.

[١٦٤] حتى لا تنتابني شكوك المشكّكين وهواجسُهُم.

[١٦٥] حتى أرى غيرَك في عمَلي، ولا أسعى لِمَدْحِ مادحٍ، ولا أخاف لومةَ لائمٍ.

[١٦٦] حتى أعرِف طريقي نحوَك دون أنْ يشغَلْني شاغلٌ عنك.

[١٦٧] حتى أُميِّز الحقَّ من الباطِل.

[١٦٨] الجوارح: الأعضاء العامِلة من أعضاء الجسَد، كاليدين والرِّجلين. والمقصود: يا الله أبْقِ لي جوارحي سليمة لأنتفع بها.

[١٦٩] أي أبقِها معي حتى الموت.

[١٧٠] الظُّلم: سَلْبُ الحق. والمقصود: وانصُرني - يا الله - على من سلَبَني حقّي.

[١٧١] ثأر ثأراً: أخذَ بدَمه، والمأْرب: البُغية والأمنيَّة. والمقصود: أرِني - يا الله - كيفَ تأخُذ لي بدَمِ من قتَلَ لي قتيلاً، وكيفَ يتحقّق فيمَن ظلمني ما أبغيه.

[١٧٢] القُرُّ: البَرْد، ويُقال هو قُرَّةُ العَيْن لما يرضي ويسر. والمقصود: وأدخِل عليَّ السُّرورَ والرِّضا بما تُعيد لي من حقٍّ ممن ظلَمَني.

[١٧٣] الكَرْب: الحُزْن والغَم.

[١٧٤] العَوْرة: كلُّ موضعٍ فيهِ خلَلٌ يُخشى دخول العدو منهُ، وكلُّ ما يستُرْهُ الانسان استنكافاً وحياءً. والمقصود: وأخفِ وغطِّ يا ربِّ نقاطَ ضَعْفي.

وَاغْفِرْ لِي خَطيئَتِي، وَاخْسَأْ شَيْطاني[175]، وَفُكَّ رِهاني[176]، وَاْجعَلْ لِي يا إلهي الدَّرَجَةَ الْعُلْيا فِي الآْخِرَةِ وَالأُوْلى.

اَللّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَما خَلَقْتَني فَجَعَلْتَني سَميعاً بَصيراً[177]، وَلَكَ الْحَمْدُ كَما خَلَقْتَني فَجَعَلْتَني خَلْقاً سَوِيّاً[178] رَحْمَةً بِي، وَقَدْ كُنْتَ عَنْ خَلْقى غَنِيّاً[179]. رَبِّ بِما[180] بَرَأْتَني فَعَدَّلْتَ فِطْرَتي[181]، رَبِّ بِما اَنْشَأْتَني فَأَحْسَنْتَ صُورَتي[182]، رَبِّ بِما أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَفي نَفْسي عافَيْتَني، رَبِّ بِما كَلاَتَني[183] وَوَفَّقْتَني، رَبِّ بِما أَنْعَمتَ

---

[175] اخسأْ شَيْطاني: اجعَلْهُ بعيداً عني ذليلاً صاغِراً.

[176] يُصوِّر نفسَهُ (ع) هنا وكأنَّهُ صارَ رهينةً بسببِ الخطايا، ويطلُب من اللهِ سبحانَهُ أنْ يفُكَّ رِهانَهُ.

[177] يقولُ تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (النحل، ٧٨).

[178] يقولُ تعالى: "الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى" (الأعلى، ٢).

[179] يقولُ تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ" (فاطر، ١٥-١٧).

[180] أي يا ربِّ بسببِ ما....، والجواب سوف يأتي ابتداءً من "صلِّ على محمَّد وآلِ محمَّد وأعنِّي على بوائقِ الدُّهور..". نظير قول موسى (ع): "ربِّ بما أنعمْت عليَّ فلَنْ أكونَ ظهيراً للمُجرمين" (القصص، ١٧)، أي يا ربِّ بسببِ ما أنعمْتَ عليَّ من النجاةِ فلَنْ أكونَ معيناً للمجرمين.

[181] أي بما خلَقْتَني فجعَلْتَ فِطرَتي معتدِلة.

[182] "صوَّرَكُم فأحسَنَ صُوَرَكم" (غافر، ٦٤، التغابن، ٣).

[183] كلأَ اللهُ فلاناً: حفظَهُ ورَعاهُ.



أَنعَمتَ عَلَيَّ فَهَدَيْتَني[184]، رَبِّ بِما أَوْلَيْتَني[185] وَمِنْ كُلِّ خَيْرٍ أعْطَيْتَني، رَبِّ بِما أطْعَمْتَني وَسَقَيْتَني[186]، رَبِّ بِما أغْنَيْتَني وَأقْنَيْتَني[187]، رَبِّ بِما أعَنْتَني وَأعْزَزْتَني، رَبِّ بِما أَلْبَسْتَني مِنْ سِتْرِكَ الصَّافي[188]، وَيَسَّرْتَ لي مِنْ صُنْعِكَ الْكافي، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَأعِني عَلى بَوائِقِ[189] الدُّهُورِ، وَصُرُوفِ[190] اللَّيالي وَالأَيَّامِ، وَنَجِّني مِنْ أهْوالِ الدُّنْيا[191] وَكُرُباتِ الآخِرَةِ[192]، وَاكْفِني شَرَّ ما يَعْمَلُ الظّالِمُونَ فِى الأَرْضِ[193].

---

[184] يقولُ تعالى: "يُريدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ" (النساء، ٢٦).

[185] أولى فلاناً معروفاً: صنعَهُ إليه.

[186] "والذي هو يُطْعِمُني ويَسْقِين" (الشعراء، ٧٩).

[187] أقنى: أعطاهُ القُنْية، وهو ما يُقتَنى ويُدَّخَر من النِّعَم المادِّية والمعنويَّة. يقولُ تعالى "وأنَّهُ هو أغنى وأقنى" (النجم، ٤٨).

[188] يا بني آدَمَ قد أنزَلْنا عليكُم لِباساً يُواري سوءاتكم وريشاً" (الأعراف، ٢٦).

[189] "بوائق" جَمْعَ "بائقة": الدَّاهية والشَّر.

[190] صروف جمع صرف: النَّائبة والحادثة.

[191] من إبتلاءاتٍ وفِتَنٍ شديدة تُهدِّد دين الإنسان.

[192] من بعثٍ وحشرٍ ومرورٍ على الصِّراط ونشْرٍ للكتُب ووقوف في عرصاتِ يوم القيامة للحسَاب ووَزْن الأعمال...وكلُّ مرحلة من هذه المراحل تجعل الوُلْدانَ شيباً.

[193] يقولُ تعالى لرسولِه (ص): "فَسَيَكْفيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ" (البقرة، ١٣٧).



اَللّهُمَّ ما أخافُ فَاكْفِني[194]، وَما أحْذَرُ فَقِني[195]، وَفي نَفْسي وَديني فَاحْرُسْني[196]، وَفي سَفَري فَاحْفَظْني، وَفي أهْلي وَمالي فَاخْلُفْني[197]، وَفي ما رَزَقْتَني فبارِكْ لي[198]، وَفي نَفْسي فَذلِّلْني، وَفى أعْيُنِ النّاسِ فَعَظِّمْني،[199] وَمِنْ شَرِّ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فَسَلِّمْني[200]، وَبِذُنُوبي فَلا تَفْضَحْني[201] وَبِسَريرَتي فَلا تُخْزِني[202]، وَبِعَمَلي فَلا تَبْتَلِني[203]، وَنِعَمَكَ فَلا تَسْلُبْني[204]، وَإلى غَيْرِكَ فَلا تَكِلْني[205].

---

[194] تصدَّى يا ربِّ وتكفَّل بمعالجةِ الأمور التي أخافُ منها. وإذا استقرأنا الآيات القرآنية، نجد أنَّ المؤمن يخاف مما يلي: الله وعذابَهُ، سوء الحساب، التورُّط بالمعصية. وقد يخاف أو يطلُب من الله أنْ يكفيه ما يلي: فُقدان الأمْن الاجتماعي، الظَّالمين وشرورهم، تخطُّف النَّاس وسطوتُهم، خيانة الخصُوم، عدَم العدْل مع اليتامى والزَّوجات، العيلَة والضَّائقة المالية، لومة اللائم عندما يقوم بتكاليفه الشَّرعية.

[195] احمني يا ربِّ مما أحذَر. وإذا استقرأنا الآيات القرآنية، نجد أنَّ اللهَ سبحانه يطلُب منَّا الحذر مما يلي: سخطه وغضبه، إضلال الكافرين وفتنتهم، كيد المنافقين، التأثير السَّلبي لشريك الحياة (الزَّوج أو الزَّوجة) والأولاد.

[196] احرُسني من نفْسي الأمارة بالسُّوء، ولا تجعَل مُصيبَتي في ديني.

[197] وفي نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين (ع) عندما عزَمَ على المسيرِ إلى الشَّام قال: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من وعْثاءِ السَّفَر، وكآبة المُنْقَلَب، وسوءِ المنظَر في النَّفْسِ والأهلِ والمال. اللهمَّ أنتَ الصاحِبُ في السَّفَر، وأنتَ الخليفةُ في الأهل، ولا يجمَعهما غيرُك، لأنَّ المستخلَف لا يكونُ مُستصحَباً، والمستَصْحَبُ لا يكونُ مُستخْلَفاً.

[198] البرَكة: الزِّيادة والنَّماء.

[199] وكما جاءَ في دعاء مكارم الأخلاق: "اللهمَّ صلِّ على محمَّد وآلِ محمد، ولا ترفَعْني في النَّاسِ درجةً إلا حطَطْتَني عندَ نفْسي مِثلَها، ولا تُحدِث لي عزّاً ظاهراً إلا أحدَثْتَ لي ذِلَّةً باطنةً عندَ نفْسي بقَدَرِها".

[200] سلِّمني يا ربِّ من الإيحاءات الشِّريرة والمزَخْرَفة لشياطينِ الإنس والجن، يقولُ تعالى: "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ



إلهي[٢٠٦] إلى مَنْ تَكِلُني؟[٢٠٧] إلى قَريبٍ فَيَقطَعُني[٢٠٨]؟ أمْ إلى بَعيدٍ فَيَتَجَهَّمُني؟[٢٠٩] أم إلى الْمُسْتَضْعِفينَ لي[٢١٠]، وَأنْتَ رَبِّي وَمَليكُ أمْري؟ أشْكُو اِلَيْكَ غُرْبَتي وَبُعْدَ

غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ" (الأنعام، ١١٢). ولا تجعل لي من أشرارهم قُرَناء يزيِّنوا لي الأعمال المنحرفة، يقولُ تعالى: "وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ" (فصلت، ٢٥). لتكون النتيجة الضَّلال والتِّيه عن الصِّراط المستقيم، كما هو حال الكافرين، يقولُ تعالى: "وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ" (فصلت، ٢٩).

٢٠١ "يومئذٍ تُعرَضونَ لا تخفى منكُم خافية" (الحاقة، ١٨). فاللهُ سبحانَهُ سترَ علينا ذنوباً نحنُ أحوَج إلى سترِها في الآخرة إذْ لم يُظهِرها لأحدٍ من عبادِه الصَّالحين.

٢٠٢ السَّريرة: عمَلُ السِّر من خيرٍ أو شر، جمعُها "سرائر"، يقولُ تعالى: "يومَ تُبلى السَّرائِر" (الطارق، ٩)، أي تظهَر وتتكشَّف. الخزي: الذُّل الذي ينتُج جرَّاء الفضيحة.

٢٠٣ عندما يترتَّب على عملي عقوبة دنيوية أو أخروية، أو عندما يكون عمَلي غيرَ خالصٍ لك.

٢٠٤ بسببِ عدَم الشُّكر.

٢٠٥ يترُك اللهُ سبحانَهُ العبدَ ويكِلْهُ إلى نفسِه أو إلى غيرِه عندما يفقد العبدُ أسباب التَّسديد والتَّأييد والمدَد والمساندَة الإلهية. ويفقِد العبدُ تلكَ الأسباب عندما تتكرَّر دعوة الله له فيُولِّي هو عنهُ، ويتَحبَّب اللهُ لهُ فيتبَغَّض هو إليه، ويتودَّد اللهُ لهُ فلا يقبَل هو منهُ...فإنْ أصرَّ العبدُ بإرادتِه واختيارِه على هذا السُّلوك، وكلَهُ اللهُ إلى نفسِه أو إلى غيرِه.

٢٠٦ هذه الفقَرة المؤثِّرة من الدُّعاء مرويَّة عن رسولِ الله (ص)، عندما خرَجَ إلى الطائف وحاولَ أنْ يجد فيها ملجأً ومكاناً للدَّعوة إلى اللهِ تعالى، فرماهُ أهلُها بالحجارةِ حتى أدْمَت قدَماهُ الشَّريفتان، وفي طريقِ عودتهِ إلى مكة توجَّهَ إلى اللهِ تعالى بهذا الدُّعاء، وهو في حيرةٍ من



دارِي، وَهَوانِي عَلى مَنْ مَلَّكْتَهُ اَمْرِي[211]. إلهي فَلا تُحْلِلْ عَلَيَّ غَضَبَكَ، فإنْ لَمْ تَكُنْ غَضِبْتَ عَلَيَّ فَلا أبالي[212]، سُبْحانَكَ غَيْرَ أنَّ عافِيَتَكَ أوْسَعُ لي[213].

فَأَسْأَلُكَ يا رَبِّ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي أشْرَقَتْ لَهُ الأرْضُ وَالسَّماواتُ[214]، وَكُشِفَتْ بِهِ الظُّلُماتُ[215]، وَصَلُحَ بِهِ أمْرُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ[216]، أنْ لا تُميتَني عَلى

أمرِه، هل يعود إلى مكة التي خرَجَ منها يريدُ ملجئاً وملاذاً؟ أم إلى الطَّائف التي أمطرَهُ أهلُها للتَّو بالحجارة؟

[207] وكلَ إليهِ الأمر: سلَّمَهُ وفوَّضَهُ إليهِ واكتفى بهِ، ووكَلَ فلاناً إلى رأيهِ: تركَه ولم يشترك معَهُ. والمقصود: يا ربِّ إلى مَنْ تتركني؟

[208] والمقصود في دُعاءِ رسول الله (ص) على ما يبدو: قريش الذين لم يراعوا القُرْبى فقطعوا الرَّحِمْ الذي أمرَ اللهُ أنْ يوصل.

[209] تجهَّمَهُ: استقبَلَهُ بغلْظة ووَجْه كريه. والمقصود في دعاءِ رسول الله (ص) على ما يبدو: أهل الطَّائف الذينَ استقبلوهُ (ص) بالكلامِ البذيء والحجارة.

[210] أم تتركني يا الله إلى أولئكَ الذين يستضعفوني؟

[211] وأشكو إليكَ يا إلهي استخفاف من جعَلْتَ أمري بيده، كما كانَ حال شعيب (ع) حينما خاطبَهُ قومُهُ "قالوا يا شُعَيبُ لا نَفْقَهُ كثيراً مما تقول وإنَّا لنراكَ فينا ضعيفاً ولولا رَهْطُكَ لرجمناكَ وما أنتَ علينا بعزيز" (هود، ٩١).

[212] فعدَم حُلول غضبَكَ عليَّ هو ما يهمُّني، وأيُّ بلاء يُصيبُني سوفَ أصبر عليه، لكن ما لا طاقةَ على تحمُّله هو أنْ تُحْلِل عليَّ غضبَك. كيفَ وأنتَ قُلتَ في كتابك: "وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى" (طه، ٨١).

[213] فمهما ضاقَتْ عليَّ الأرضُ بما رحُبَت، ومهما ملَكَ أولئكَ الدُّنيا وزَهَوا بقوَّتِهم، ومهما تكبَّروا وطغَوا وبغَوا وأفسَدوا، فلا مكانَ لليأسِ من رَوْحِك، ولا مكانَ للقُنوط من رحمتِك، لأنَّ عافيتَك هي أوسعُ لي.



غَضَبِكَ[٢١٧]، وَلا تُنْزِلْ بي سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبى لَكَ الْعُتْبى حَتَّى تَرْضى قَبْلَ ذلك[٢١٨]، لا إلهَ إلاّ أَنْتَ، رَبَّ الْبَلَدِ الْحَرامِ[٢١٩] وَالْمَشْعَرِ الْحَرامِ[٢٢٠]، وَالْبَيْتِ الْعَتيقِ الَّذى أحْلَلْتَهُ الْبَرَكَةَ[٢٢١]، وَجَعَلْتَهُ للنّاسِ أمْناً[٢٢٢]، يا مَنْ عَفا عَنْ عَظيمِ الذُّنُوبِ بِحِلْمِهِ، يا مَنْ أسْبَغَ النَّعْماءَ بِفَضْلِهِ[٢٢٣]، يا مَنْ أعْطَى الْجَزيلَ بِكَرَمِهِ[٢٢٤].

---

[٢١٤] فاللهُ سبحانَهُ "نورُ السَّماوات والأرض" (النور، ٣٥)، وهو موجِدُ الأشياء ومُظهِرُها، وبنورِ وجهِهِ أضاءَ لَهُ كلُّ شيء.

[٢١٥] فاللهُ سبحانَهُ يكشِفُ الظُّلمات للمؤمنين، ليمشي المؤمنُ سويًّا على صراطٍ مستقيم، يقولُ تعالى: "اللهُ وليُّ الذينَ آمنوا يُخرِجُهُم من الظُّلماتِ إلى النُّور" (البقرة، ٢٥٧).

[٢١٦] المراد بالأوَّلين الأمم الماضون للأنبياءِ السَّابقين، وبالآخرين هذهِ الأمة.

[٢١٧] فهذا هو سوء الخاتمة والعاقبة.

[٢١٨] لكَ العُتْبى: أعطَيْتُكَ العُتْبى. فمِن حقِّكَ يا إلهي أنْ تظَلَّ عاتباً، ومن واجبي أنْ أرجع مما تكرَهُ إلى ما تُحبُّ إلى أنْ أظفَر برضاك.

[٢١٩] أي مكة، التي أقسَمَ بها الله سبحانَهُ في قولِه تعالى"لا أقسِمُ بهذا البلَد" (البلد، ١).

[٢٢٠] أي مزدلفة، التي ذكرَها تعالى في قولِه: "فاذكروا اللهَ عند المشعر الحرام" (البقرة، ١٩٨).

[٢٢١] أي الكعبة، التي ذكرَها تعالى في قولِه: "وليطَّوفوا بالبيتِ العتيق" (الحج، ٢٩)، وسُمِّي عتيقاً لِقدَمِه، فإنه أوَّلُ بيتٍ بُنِيَ للعبادة، وجعلَهُ تعالى مباركاً، يقولُ تعالى: "إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضعَ للناسِ لَلَّذي ببكةَ مباركاً وهُدىً للعالمين" (آل عمران، ٩٦).

[٢٢٢] يقولُ تعالى: "وإذْ جعَلْنا البيتَ مثابةً للنَّاسِ وأمْناً" (البقرة، ١٢٥).

[٢٢٣] أسبغَ اللهُ عليهِ النِّعمة: أي أتمَّها، يقولُ تعالى:"وأسبغَ عليكُم نعمَهُ ظاهرةً وباطنة" (لقمان، ٢٠).

[٢٢٤] الجزيل: العظيم والكثير.

يا عُدَّتي في شِدَّتي[٢٢٥]، يا صاحِبي في وَحْدَتي[٢٢٦]، يا غِياثي في كُرْبَتي[٢٢٧]، يا وَلِيِّي في نِعْمَتي[٢٢٨]. يا إلهي وَإِلهَ آبائي إِبْراهيمَ وَإِسْماعيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ[٢٢٩]، وَرَبَّ جَبْرَئيلَ[٢٣٠] وَميكائيلَ[٢٣١] وَإِسْرافيلَ[٢٣٢]، وَربَّ مُحَمَّد خاتَمِ النَّبِيّينَ[٢٣٣] وَآلِهِ

---

٢٢٥ العُدَّة: ما أُعِدَّ لأمرٍ يحدُث. والإمام (ع) يرى أنَّ عُدَّته الحقيقيَّة عندَ الشَّدائد ليست وسائل القوَّة الماديَّة من مالٍ وسلاح، بل الله سبحانَهُ.

٢٢٦ فاللهُ سبحانَهُ هو المصاحِب للمَرْء، حتى لو كانَ المرْءُ لوحدِه، أو كانَ مع غيرِه لكن شعَرَ بالغُربةِ والوَحْدَة، يقولُ تعالى: "وهو معَكُم أينَ ما كُنتُم" (الحديد، ٤).

٢٢٧ يا مجيبَ صَيْحَتي إذا ما طلبْتُ الإغاثة والفَرَج عند اشتدادِ حُزني وغمِّي.

٢٢٨ صاحِبُ الفَضْل في نِعْمَتي.

٢٢٩ الإمام الحسين (ع) من ذرية إبراهيم وإسماعيل (ع)، ويصُحُّ – في اللغة - أنْ يقول "آبائي" لعمِّه إسحاق ويعقوب (ع). تماماً كما ذكرَ بنو إسرائيل أنَّ إسماعيل (ع) هو أبو يعقوب مع أنَّهُ عمِّه، في قولِه تعالى: "أم كُنْتُم شهداءَ إذ حضرَ يعقوب الموْت إذ قالَ لبنيه ما تعبُدونَ من بعدي؟ قالوا: نعبُدُ إلهكَ وإلهَ آبائكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهاً واحداً ونحنُ لهُ مسلمون" (البقرة، ١٣٣).

٢٣٠ جبرئيل من الملائكةِ المقرَّبين، هو مَلاك الوحي، ويُقالُ لهُ في التُّراث القديم "غبريال". وفي دعاءِ أم داود: "اللهمَّ صلِّ على جبرئيلَ أمينكَ على وحيِكَ، والقويِّ على أمرِكَ، والمطاع في سماواتِكَ، ومَحالِّ كراماتِكَ، المتَحمِّل لكلماتِكَ، الناصِرِ لأنبيائِكَ، المدَمِّرِ لأعدائكَ".

٢٣١ ميكائيل من الملائكة المقرَّبين، يُقال أنَّ مهمَّته إنزال المطر وإنبات النَّبات، ويُقالُ لهُ في التُّراث القديم "ميخائيل" وأنَّهُ تصدى لإبليس بعد استكباره على الله سبحانه. وميكائيل مع جبرائيل مذكوران في القرآن في قولِه تعالى: "من كانَ عدُوّاً لله وملائكتِه ورُسُلِه وجبريلَ وميكالَ فإنَّ اللهَ عدوٌ للكافرين" (البقرة، ٩٨). وفي دعاء أم داود: "اللهمَّ صلِّ على ميكائيل، مَلِكِ رحمتِكَ، والمخلوقِ لرأفَتِكَ، والمستغفرِ المعينِ لأهلِ طاعتِكَ".

٢٣٢ إسرافيل من الملائكةِ المقرَّبين، يُقالُ أنَّهُ موكَّل بالنَّفْخِ في الصُّور عندَ قيام السَّاعة. والقرآن يتحدَّث عن نفختين في الصُّور، مرة لإماتةِ الخلْق ومرة أُخرى للبَعْثِ والحِساب،



الْمُنْتَجَبِينَ، مُنْزِلَ التَّوراةِ وَالإنْجيلَ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقانِ[٢٣٤]، وَمُنَزِّلَ كهيعص[٢٣٥] وَطه وَيس[٢٣٦] وَالْقُرآنِ الْحَكيمِ. أَنْتَ كَهْفي حينَ تُعيينِي الْمَذاهِبُ في سَعَتِها[٢٣٧]، وَتَضيقُ بِيَ الأَرْضُ بِرُحْبِها[٢٣٨]، وَلَوْلا رَحْمَتُكَ لَكُنْتُ مِنَ الْهالِكينَ[٢٣٩]. وَأَنْتَ مُقيلُ عَثْرَتي[٢٤٠]، وَلَوْلا سَتْرُكَ إيّايَ لَكُنْتُ مِنَ الْمَفْضُوحينَ[٢٤١]. وَأَنْتَ مُؤَيِّدي بِالنَّصْرِ عَلى أَعْدائي، وَلَوْلا نَصْرُكَ إيّايَ لَكُنْتُ مِنَ الْمَغْلُوبينَ[٢٤٢].

يقولُ تعالى:"ونفخ في الصُّور فصَعِقَ من في السَّماواتِ ومن في الأرضِ إلا من شاءَ اللهُ ثمَّ نُفِخَ فيهِ أُخرى فإذا هُمْ قيامٌ ينظُرون" (الزمر، ٦٨). وفي دعاء أم داود: "اللهمَّ صلِّ على إسرافيل، حاملِ عرشِكَ، وصاحبِ الصُّورِ، المنتظر لأمْرِكَ، الوَجِل المشْفق من خيفَتِك".

٢٣٣ يقول تعالى: "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (الأحزاب، ٤٠).

٢٣٤ على موسى (ع) وعيسى (ع) وداود (ع) ومحمد (ص).

٢٣٥ سورة مريم.

٢٣٦ وذِكْر هذهِ السُّوَر الثَّلاث بالتَّحديد: مريم وطه ويس يُشيرُ إلى خصوصيةٍ خاصَّة فيها.

٢٣٧ الكهف كالمغارة في الجبَل إلا أنَّهُ أوسَع منها. فأنتَ يا إلهي الملجأ بالنسبةِ لي إذا ما أعجَزَتْني وحيَّرتْني الطُّرُق المتعدِّدة رغم سعَة كلِّ واحدٍ منها.

٢٣٨ وأنتَ يا إلهي الملجأ بالنسبةِ لي عندما أشعر بانعدام البدائل والخيارات، فكأنَّ الأرض – عندئذٍ – تضيقُ عليَّ حتى لو كانَت واسعة.

٢٣٩ لأني تعرَّضْتُ لمواقف في حياتي كادَ أنْ يكون هلاكي وموتي فيها.

٢٤٠ العَثْرة: السَّقْطة والكَبْوة والزلَّة. فأنتَ يا إلهي من تتجاوَز عن سقَطاتي وزلَّاتي.

٢٤١ فبَعْض هذهِ السَّقَطات والزلَّات كانَ من الممكن أنْ تظهَر للآخرين، ولكن أنْتَ تكَفَّلْتَ بسَتْرِها حتى لا أفتضح.

٢٤٢ فطالما أنا ناصرٌ لكَ – يا إلهي – فأنتَ ناصري على عدُوي، لأنَّكَ وعَدْتَ "ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من يَنْصُرُهُ" (الحج، ٤٠)، وهذا هو السبَبُ الحقيقي في انتصاري على عدُوي، لأنَّ قوَّتي مُستمدَّة من قُوَّتِك، وقُدْرتي من قُدْرتِك. وإنْ صِرْتَ ناصري فلَن يغلبني أحد، فقد

يا مَنْ خَصَّ نَفْسَهُ بِالْسُّمُوِّ وَالرِّفْعَة[٢٤٣]، فَأَوْلياؤهُ بِعِزِّهِ يَعْتَزُّونَ[٢٤٤]، يا مَنْ جَعَلَتْ لَهُ الْمُلُوكُ نَيرَ[٢٤٥] الْمَذَلَّة عَلى أعْناقِهِمْ، فَهُمْ مِنْ سَطَواتِه[٢٤٦] خائِفُونَ، يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ[٢٤٧]، وَغَيْبَ ما تَأْتِي بِهِ الأَزْمِنَةُ وَالدُّهُورُ[٢٤٨].

يا مَنْ لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إلاّ هُوَ[٢٤٩]، يا مَنْ لا يَعْلَمُ ما هُوَ إلاّ هُوَ[٢٥٠]، يا مَنْ لا يَعْلَم ما يَعْلَمُهُ إلاّ هُوَ[٢٥١]، يا مَنْ كَبَسَ الأَرْضَ عَلَى الْماءِ[٢٥٢]، وَسَدَّ الْهَواءَ

قُلتَ في كتابك: "إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (آل عمران، ١٦٠).

٢٤٣ يقولُ تعالى: "رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ" (غافر، ١٥).

٢٤٤ يقولُ تعالى:"ولله العزةُ ولرسولِه وللمؤمنين ولكنَّ المنافقينَ لا يعلَمون" (المنافقون، ٨).

٢٤٥ النَّيْر: العَلَم.

٢٤٦ السَّطْوة: شِدَّة البَطْش.

٢٤٧ يقولُ تعالى:"يعلَمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصُّدور" (غافر، ١٩). فاللهُ سبحانَهُ يعلَمُ بخيانة الأعين عندما تنظُر إلى ما لا يجوز النَّظَر إليهِ أو تتجسَّس على الآخرين، ويعلَم بما تُضْمِرهُ الصُّدور.

٢٤٨ يعلَم ما تأتِي بهِ الأيام من حوادث في المستقبل. أما نحنُ فنجهَل ذلك "وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ" (الأعراف، ١٨٨).

٢٤٩ لأنَّهُ تعالى – كما وردَ في الحديث – هو الذي كيَّفَ الكَيْف.

٢٥٠ فكُنْهُ ذاتِه لا يمكن أنْ يعلَمْ بهِ أحَد، وهو ما يُعبِّر عنهُ العرفاء بـــ "مقام العَمَاء".



بالسَّماءِ[٢٥٣]، يا مَنْ لَهُ أَكْرَمُ الأَسْماءِ[٢٥٤]، يا ذَا الْمَعْرُوفِ الَّذي لا يَنْقَطِعُ أَبَداً[٢٥٥]، يا مُقَيِّضَ الرَّكْبِ لِيُوسُفَ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ[٢٥٦]، وَمُخْرِجَهُ مِنَ الْجُبِّ[٢٥٧] وَجاعِلَهُ بَعْدَ

---

[٢٥١] فهو تعالى علاَّمُ الغيوب، وعندَهُ مفاتِحُ الغَيْب لا يعلَمُها إلا هو. يقولُ تعالى: "عالِمُ الغَيْب فلا يُظهر على غيبِه أحداً، إلا من ارتضى من رسولٍ فإنَّهُ يسلُكُ بهِ من بينِ يَدَيه ومن خلفه رصَداً" (الجن، ٢٦-٢٧).

[٢٥٢] يُقالُ:"كَبَسْتُ النَّهرَ والبئرَ": أي طمَمْتُهما بالتُّراب.

[٢٥٣] ربَّما إشارة إلى الغلافِ الجوي الذي يمنَع خروج غازات الأرض التي تحتاج إليها الكائنات الحية. ويُمثِّل الأكسجين ٢١ % من الغازات المكوِّنة للغلافِ الجوِّي القريب من سَطْحِ الأرض، ولو زادَت هذهِ النِّسبة بمقدار الضِّعف لزادَت قابليَّة الاحتراق وشدَّة الحرائق بالنسبةِ نفسها. كذلك لا تخترق الأشعة الشمسيَّة ذات التأثيرات الكيميائيَّة هذا الغلاف، إلا بالقدرِ الذي يكفي لحياةِ النَّبات، وتكوين فيتامين "D" في جسْمِ الانسان، والقضاء على الجراثيمِ الضارَّة، وما إلى ذلكَ من فوائد.

[٢٥٤] يقولُ تعالى:"اللهُ لا إلهَ إلا هو لهُ الأسماءُ الحسنى" (طه، ٨).

[٢٥٥] فهو عزَّ وجل يمُدُّ الكائنات من عطائه، ويُمدُّ الناس بمعروفهِ لحظةً فلحظة، دون أيِّ انقطاع. ولو انقطعَ الفيضُ عنهم لحظةً لساخَت الأرضُ بأهلِها، بل لفنِيَ الكونُ بأسرِه.

[٢٥٦] سيبدأ الآن في سَرْدِ سلسلة من المواقف، تُظهِر بشكلٍ جلي تدَخُّل الله عزَّ وجل في تغيير مسار الأحداث بنحوٍ لم يكن متوقعاً على الإطلاق. يبدأ من قصَّة يوسف (ع). فوفقاً لحسابِ الاحتمال، احتمالُ مرور الرَّكبُ، ووقوفه عندَ نقطةٍ من نِقاط الصَّحراء المترامية الأطراف، في بلَد قَفْر، ووقوفه عندَ الجُبِّ - وهو ليسَ في طريقِ المارَّة - في غايةِ الضآلة. لكنَّهُ وقَع؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجل أرادَ أنْ يُنْجي يوسُف (ع). يقولُ تعالى: "وجاءَت سيَّارةٌ فأرْسَلوا وارِدَهُم فأدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشرى هذا غلامٌ وأسرُّوهُ بِضاعةً واللهُ عليمٌ بما يعمَلون" (يوسف، ١٩).

[٢٥٧] بعدَما ذهبَ بهِ إخوتُهُ "وأجمعوا أنْ يجعلوهُ في غيابتِ الجبِّ وأوحينا إليه لتُنبِّئَنَّهُم بأمرِهِم هذا وهُمْ لا يشعرون" (يوسف، ١٥). وما يثيرُ العجَب ليسَ مرور الرَّكْب ووقوفهم عندَ الجُبِّ فحسب، بل أيضاً نجاح عمليَّة إخراج يوسُف (ع) من الجُبِّ. لأنَّ

بَعْدَ الْعُبودِيَّةِ مَلِكاً[258]، يا رادَّهُ عَلى يَعْقُوبَ بَعْدَ أنِ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظيمٌ[259]، يا كاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلْوى عَنْ أَيُّوبَ[260]، وَمُمْسِكَ يَدَيْ إبْرهيمَ عَنْ ذَبْحِ ابْنِهِ بَعْدَ كِبَرِ سِنِّهِ[261]، وَفَناءِ عُمُرِهِ، يا مَنِ اسْتَجابَ لِزَكَرِيّا فَوَهَبَ لَهُ يَحْيى،

الاحتمالات الأُخرى كانَت هي الأرجح، كمُرورِهم على الجُبِّ دونَ أنْ يقفوا عندَهُ، أو وقوفهم عندَهُ دون أنْ يُنزلوا الدَّلو، أو إنزالهم للدَّلو دون إخراج يوسف (ع) – لدخولِه في غيبوبة أو نوم أو لصِغر حجْم الدَّلو أو غير ذلك من الأسباب - أو انقطاع حبل الدَّلو أثناء عملية الإخراج...إلخ، لكن كلُّ هذا لم يقَع، وإنَّما وقَعَ ما أرادَهُ اللهُ عزَّ وجل، وهو نجاة يوسُف (ع).

[258] وهذا يزيدُ من عجَبِ ودهشة الإنسان؛ كيفَ يتحوَّل عبدٌ يُقاسي ويلات السِّجن إلى ملكٍ خلال فترة وجيزة؟! حيث "..قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ. قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ. وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (يوسف، ٥٤-٥٦).

[259] فبعد أنْ عادَ إخوة يوسف (ع) من مِصْر دون بنيامين، كانوا يائسين تماماً من استعادته، فضلاً عن استعادة يوسُف (ع)، الذي لم يطرأْ ببالِهم قطُّ أنَّهُ على قيدِ الحياة...كان موقفُ أبيهم يعقوب هو أنْ "تولى عنْهُم وقالَ يا أسفى على يوسُف وابيضَّت عيناهُ من الحزنِ فهو كظيم" (يوسف، ٨٤)، فأرسَلَ يوسُف قميصَهُ مع أخوتِه، "فلمَّا أنْ جاءَ البشيرُ ألقاهُ على وجهِهِ فارتدَّ بصيراً قالَ ألمْ أقُل لكُم إنِّي أعلَمُ من اللهِ ما لا تعلمون" (يوسف، ٩٦).

[260] بعدما استَحْكَمَ الضُّر والبلاء، وظنَّ الظَّانون أنَّهُ لن يُرفَعَ عنه بأيِّ حالٍ من الأحوال. يقولُ تعالى: "وأيوبَ إذْ نادى ربَّهُ أنِّي مسَّنِيَ الضُّرُّ وأنْتَ أرحمُ الراحمين، فاستَجَبْنا لهُ فكشَفْنا ما بِه من ضُرٍّ وآتيناهُ أهلَهُ ومثلَهُم معهُم رحمةً من عندِنا وذكرى للعابدين" (الأنبياء، ٨٣-٨٤).

[261] فرَغْم اجتماعِ كلِّ الشُّروط الظاهرية لنجاح عمليَّةِ الذَّبح؛ كعزْم إبراهيم (ع) على الذَّبح، واستسلام إسماعيل (ع) لأمرِ الله، وتوافُر أداة الذَّبح الحادَّة....وبالتالي احتمال



وَلَمْ يَدَعْهُ فَرْداً وَحيداً[٢٦٢]، يا مَنْ أخْرَجَ يُونُسَ مِنْ بَطْنِ الْحُوت[٢٦٣]، يا مَنْ فَلَقَ الْبَحْرَ لِبَني اِسْرائيلَ فَأَنجاهُمْ، وَجَعَلَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مِنَ الْمُغْرَقينَ[٢٦٤]، يا مَنْ أرْسَلَ

توقُّف عمليَّة الذَّبح في غايةِ الضآلة، خصوصاً بعد فشَل محاولات الشَّيطان المتكرِّرة لتشكيك إبراهيم (ع) وإيقافِه. مع ذلك، نادى اللهُ إبراهيمَ (ع) في اللَّحظة الأخيرة وأمسَكَ بيدَيْه. يقولُ تعالى:"فلمَّا بلَغَ معهُ السَّعيَ قالَ يا بُنّي إنِّي أرى في المنامِ أنِّي أذبحُكَ فانظُر ماذا ترى؟ قال يا أبتِ افعَل ما تؤمَر ستجدُني إنْ شاءَ اللهُ من الصَّابرين، فلمَّا أسلَما وتلَّهُ للجبين، وناديناهُ أنْ يا إبراهيم، قد صدَّقتَ الرُّؤيا إنَّا كذلكَ نجزي المحسنين، إنَّ هذا لهوَ البلاءُ المبين، وفدَيْناهُ بذبحٍ عظيم" (الصافات، ١٠٢-١٠٧).

٢٦٢ بعدَ أنْ يئسَ اليائسونَ من قُدْرته على الإنجاب بسبب كِبَرِ سنِّه وكوْن إمراته عاقِر. يقولُ تعالى:"وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ" (الأنبياء، ٨٩). وقال: "فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ. فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ" (آل عمران، ٣٧-٤٠).

٢٦٣ ونجاة يونُس (ع) من بطنِ الحوت من العجائب وغير متوقَّع على الإطلاق. فنحنُ لا نتحدَّث عن نجاحِه في الفِرار من التقامِ الحوت، وإنَّما عن نجاته بعدَ أنْ صارَ في بطنِ الحوت فعلاً! كيف لم يختنِق في بطنِه؟ بل كيفَ لم يغبْ عن الوعي وظلَّ في حالة تسبيح؟ يقولُ تعالى:"فالتقمَهُ الحوتُ وهو مُليم، فلولا أنَّه كانَ من المسبِّحين، للبثَ في بطنه إلى يوم يُبعَثون" (الصافات، ١٤٢-١٤٤). أيضاً يقولُ:"وذا النونِ إذ ذهبَ مغاضباً فظنَّ أنْ لَنْ نقدرَ عليه فنادى في الظُّلماتِ أنْ لا إلهَ إلا أنتَ سُبحانكَ إنِّي كنتُ من الظَّالمين، فاستَجَبْنا لهُ ونجَّيناهُ من الغمِّ وكذلك نُنجي المؤمنين" (الأنبياء، ٨٧-٨٨).



أرْسَلَ الرِّياحَ مُبَشِّرات بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَته[٢٦٥]، يا مَنْ لَمْ يَعْجَلْ عَلى مَنْ عَصاهُ مِنْ خَلْقه[٢٦٦]، يا مَنِ اسْتَنْقَذَ السَّحَرَةَ مِنْ بَعْدِ طُولِ الْجُحُود، وَقَدْ غَدَوْا في نِعْمَته يَأكُلُونَ رِزْقَهُ، وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَقَدْ حادُّوهُ وَنادُّوهُ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ[٢٦٧].

---

[٢٦٤] فرَغْمَ أنَّ الجمعان لما تراءى "قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ"، وكان كلامُهُم - وفقاً للحسابات الماديِّة - صحيحاً، لأنَّ احتمال نجاة موسى (ع) وبني إسرائيل في تلكَ اللّحظة كانَ في غاية الضآلة، بل يُلحَق بالعدَم، فالعدُو ورائَهُم والبحرُ أمامَهُم ...مع ذلك، أجابَهم موسى (ع) إجابةَ الواثق بالله تعالى "قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ" (الشعراء، ٦١-٦٢)، لأنَّ الله عزَّ وجل كانَ قد أوحى إليه بأنَّهُ سينجو هو وقومهُ من فرعون، يقولُ تعالى: "وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ" (طه، ٧٧). ويقولُ تعالى:"وجاوَزْنا ببني إسرائيل البحرَ فأتْبَعَهُم فرعونُ وجنودُهُ بغياً وعَدْواً حتى إذا أدركَهُ الغرَقُ قالَ آمنتُ أنَّهُ لا إله إلا الذي آمنَت به بنو إسرائيلَ وأنا من المسلمين" (يونس، ٩٠).

[٢٦٥] نعم، فالرِّياح مُبشِّرات بينَ يدَي رحمتِه، خصوصاً في مناطقنا الصَّحراوية. تصوَّر أنَّك مُزارِع، وأنَّ حياتَكَ وقُوتَكَ يتوقَّفانِ على ما تُنْتِجُهُ أرضُك، وأنَّكَ في منطقةٍ يستحيل أو يَصْعُب نقلُ الماءِ إليها، وأنَّكَ قد جهَّزتَ الأرضَ ووضَعْتَ البذْرَ فيها، وأنَّك تنتظِر نزولَ المطَر. فما هو احتمال أنْ تمُر سحابة على أرضِك بالتَّحديد دون بقيَّة الأراضي؟ وإنْ مرَّت أصلاً، فما هو احتمال أنْ ينزل ماؤُها على أرضِك؟ إنَّهُ احتمالٌ ضئيلٌ جداً. فالاحتمال الأرجَح هو إما عدَم مرور سحابة أصلاً، أو مرورها دون أنْ ينزل ماؤُها، أو نزولَهُ لكن قُرْب أرْضك وليسَ عليها. انظُر إذن كيفَ يسوق الله سبحانَهُ هذهِ الرِّياح بقدَرٍ، ليُحرِّك السَّحابُ لتَمُرَّ فوقَ أرضِك، وتلتقي السَّحابة ذات الشُّحنة الموجبة بالأخرى السَّالبة، ويصطدما، ليُبَشِّرُكَ ذلك بنزول المطر، وأنَّ حياتَك وقوتك سيستمران بسببِ هذا التَّسخير الإلهي، ليُذيقَكَ من رحمتِه. يقولُ تعالى:"ومن آياته أنْ يُرسلَ الرِّياحَ مبشِّرات وليُذيقَكُم من رحمتِه ولتجري الفُلْكُ بأمرِه ولتَبْتَغوا من فضلِه ولعلَّكم تشكُرون" (الروم، ٤٦).



٢٦٦ من الأمور التي تُثيرُ عجَبَ الإنسان وتقَع خلافَ توقُّعه، إمهالُ اللهِ العصاة الذينَ يتجرَّؤونَ عليه ويتحدّونَ إرادتَهُ، كيفَ لا يترل عليهم العذاب المباشر ويصُبُّهُ فوقَ رؤوسِهم صبًّا؟ قتلة النَّبي يحيى (ع)، قتلة الإمام الحسين (ع)، مستبيحو حُرْمة المدينة، منتهكو الكعبة المشرَّفة، مرتكبو الجرائم الفاضحة ضد الإنسانيَّة على مرِّ التاريخ...هل تعلَم – أيُّها القارئ – أنَّ فرعون الذي عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، بعدَ أنْ أتمَّ اللهُ الحجَّةَ عليه - وفضحَهُ يوم الزِّينة في قصَّة السَّحرة المشهورة – أعطاهُ بعدَ كلِّ ذلك فُرَص متعدِّدة وأمهَلَهُ عدَّة سنوات! يقول تعالى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ" (الأعراف، ١٣٣). ثمَّ بعد كلِّ هذه الفُرَص أنزلَ عذابَهُ على فرعون وأغرقَهُ...في حين أنَّ الإنسان يتوقَّع عادةً نزول العذاب بنحوٍ مباشر، لكنَّ اللهَ عزَّ وجل لا يعجَل لعجلةِ العباد. يقول تعالى:"وربُّكَ الغفورُ ذو الرَّحمة لو يُؤاخذُهُم بما كسَبُوا لعجَّل لهمُ العذابَ بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه مَوْئلاً" (الكهف، ٥٨).

٢٦٧ وقصَّةُ السَّحرة تثيرُ العجَبَ والدَّهْشَة؛ كيفَ يتحوَّل أئمة الكُفْر والجُحود - الذينَ تكفَّلُوا بالتَّصدي للحقِّ ومواجهته – في موقفٍ واحد ولحظة واحدة إلى عباد صالحين يُضَحُّون بأرواحِهم في سبيلِ الحَقِّ والحقيقة! فالإنسانُ كلَّما توغَّلَ في الطريقِ الخاطئ والمنحرف، صارَ احتمالُ عودته وتصحيحُ مسارِه أضعَف، فكيف إذا كانَ من أبرَز أئمة الكُفْر والضَّلال؟ معَ ذلك، هذا الاحتمال الضَّئيل تحقَّق في السَّحرة! يقولُ تعالى:"وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ. قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ. وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ. قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ. قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا



يا اَللهُ يا اَللهُ، يا بَديءُ يا بَديعُ لا نِدَّ لَكَ[٢٦٨]، يا دائماً لا نَفادَ لَكَ[٢٦٩]، يا حَيّاً حينَ لا حَيَّ[٢٧٠]، يا مُحْيِيَ الْمَوْتى[٢٧١]، يا مَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْس بِما كَسَبَتْ[٢٧٢]، يا مَنْ قَلَّ لَهُ شُكْري فَلَمْ يَحْرِمْني[٢٧٣]، وَعَظُمَتْ خَطيئَتي فَلَمْ يَفْضَحْني[٢٧٤]، وَرَآني عَلَى الْمَعاصي فَلَمْ يَشْهَرْني[٢٧٥]، يا مَنْ حَفِظَني في صِغَري[٢٧٦]، يا مَنْ رَزَقَني في

مُنْقَلِبُونَ. وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ" (الأعراف، ١١٣-١٢٦).

٢٦٨ البَديء: الأول، والبَديع: المخترع والخالق لا عن مِثالٍ سابق، والنِّد: المِثْل والنَّظير.

٢٦٩ دائم: سَرْمَدي. فطالما أنَّ اللهَ سبحانَهُ أزَليٌّ (قبل بداية الزمان) وأبَديٌّ (بعد نهاية الزمان)، فهو إذن سرمديٌّ (أزلي وأبدي معاً). لا نفادَ له: لا فناءَ له.

٢٧٠ الحيُّ ضِدُّ الميِّت، فاللهُ سبحانه حيٌّ قبل وجود وحياة كلّ شيء، لأنَّ كلَّ شيء يستمِدُّ حياتَهُ منه تعالى.

٢٧١ يقولُ تعالى:"فانظُر إلى آثارِ رحمةِ الله كيفَ يحيي الأرضَ بعدَ موتِها إنَّ ذلكَ لمحيي الموتى وهو على كلِّ شيءٍ قدير" (الروم، ٥٠).

٢٧٢ يقولُ تعالى:"أفمَنْ هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبَت" (الرعد، ٣٣). و"القائمُ على شيءٍ" هو المهيمِن المتسلِّط عليه، و"القائمُ بشيءٍ من الأمر" هو الذي يُدَبِّرُهُ نوعاً من التَّدبير. واللهُ سبحانَهُ هو القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبت؛ أما قيامُهُ عليها فلأنَّهُ محيطٌ بذاتِها قاهرٌ عليها شاهدٌ لها، وأما قيامُهُ بما كسبَت فلأنَّهُ يُدَبِّر أمر أعمالها فيُحَوِّلها من مرتبةِ الحركة والسُّكون إلى أعمالٍ محفوظة عليها في صحائفِ الأعمال، ثم يُحَوِّلها إلى المثوبات و العقوبات في الدُّنيا والآخرة من قُرْبٍ وبُعْدٍ وهدى وضلالٍ ونعمةٍ ونقمةٍ وجنةٍ ونار.

٢٧٣ فرغمَ أنِّي لم أعرِف قدر نِعَمِه تعالى حقّ المعرفة، مع ذلكَ لم يحرمني منها، لأنَّهُ أجوَد وأكرَم من كلِّ جواد وكريم.

٢٧٤ لأنَّهُ ستَّار العيوب، ولا ستَّارَ للعيوب أكثرَ منه تعالى.

٢٧٥ لأنَّهُ ليسَ من عادَتهِ التَّشهير بالعاصي، بل يُحسِن إليه، ويتأنَّى به لِيفيءَ إلى أمرِه.



كِبَري[٢٧٧]، يا مَنْ أياديه عِنْدي لا تُحْصى[٢٧٨]، وَنِعَمُهُ لا تُجازى[٢٧٩]، يا مَنْ عارَضَني بِالْخَيْرِ والإِحْسانِ[٢٨٠]، وَعارَضْتُهُ بالإِساءَةِ وَالْعِصْيانِ[٢٨١]، يا مَنْ هَداني للإيمانِ مِنْ قَبْلِ أنْ اَعْرِفَ شُكْرَ الإِمْتِنانِ[٢٨٢]، يا مَنْ دَعَوْتُهُ مَريضاً فَشَفاني[٢٨٣]، وَعُرْياناً فَكَساني[٢٨٤]، وَجائعاً فَاَشْبَعَني، وَعَطْشاناً فَأَرْواني[٢٨٥]، وَذَليلاً فَأَعَزَّني[٢٨٦]،

---

[٢٧٦] من أخطارٍ مؤدِّية إلى إعاقة أو هلاك.

[٢٧٧] كل أصناف الرِّزق، فوفَّر لي حاجاتي المادِّية الأساسيَّة من طعامٍ وشرابٍ وملبَسٍ ومَسْكنٍ ومَرْكَب، كما وفَّر لي ما يزيدُني عِلْماً، كمجالسةِ العُلَماء والصَّالحين وقراءة الكُتُب النافعة.

[٢٧٨] الأيادي يعني النِّعم.

[٢٧٩] فلا يمكننا مجازاة نِعَمَهُ...وكيفَ نُجازيه وهو غنيٌّ عنَّا؟ وكيفَ نُجازيهِ إنْ كانَ ما لدينا من نِعَمٍ وقوةٍ وقدرةٍ مستمَدٌّ منهُ تعالى؟

[٢٨٠] عارَضَني يعني قابَلَني.

[٢٨١] وكما ورد في دعاء أبي حمزة الثمالي: "خيرُكَ إلينا نازل، وشرُّنا إليكَ صاعد. ولم يزَلْ ولا يزال ملكٌ كريمٌ يأتيكَ عنَّا بعمَلٍ قبيح".

[٢٨٢] يا مَنْ هداني للإيمانِ بهِ قبلَ أنْ أعرِف شُكْرَ النِّعم التي يُعطيها اللهُ ابتداءً ودونَ فَخْرٍ بالإنعام.

[٢٨٣] يقولُ تعالى: "وإذا مرِضْتُ فهو يَشفين" (الشعراء، ٨٠).

[٢٨٤] يقولُ تعالى: "يا بني آدمَ قد أنزَلْنا عليكُم لِباساً يُواري سوآتكُم وريشاً ولِباسُ التَّقوى ذلكَ خير ذلكَ من آياتِ اللهِ لعلَّهم يذَّكَّرون" (الأعراف، ٢٦).

[٢٨٥] يقولُ تعالى: "والذي هو يُطعِمُني ويَسْقين" (الشعراء، ٧٩).

[٢٨٦] فأنتَ يا الله "تعزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بيدِكَ الخير إنَّكَ على كلِّ شيءٍ قدير" (آل عمران، ٢٦).



وَجاهلاً فَعرَّفَني[٢٨٧]، ووَحيداً فكَثَّرني[٢٨٨]، وَغائباً فَردَّني[٢٨٩]، ومُقلاً فأغْناني[٢٩٠]، وَمُنْتَصراً فَنصَرَني[٢٩١]، وَغنيّاً فَلَمْ يَسلُبْني[٢٩٢]، وَأمْسَكْتُ عَنْ جَميعِ ذلكَ فَابْتَدأني[٢٩٣]، فَلَكَ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ. يا مَنْ أقالَ عَثْرَتي[٢٩٤]، وَنَفَّسَ كُرْبَتي[٢٩٥]، وَأجابَ دَعْوَتي[٢٩٦]، وَسَتَرَ عَوْرَتي[٢٩٧]، وَغَفَرَ ذُنُوبي[٢٩٨]، وَبَلَّغَني طَلَبَتي[٢٩٩]، وَنَصَرَني عَلى عَدُوّي[٣٠٠]، وَإنْ أعُدَّ نِعَمَكَ وَمِنَنَكَ وَكَرائِمَ مِنَحِكَ لا أُحْصيها[٣٠١].

---

[٢٨٧] حيثُ وهَبَني كلّ أدوات المعرفة ، سواء على مستوى الحِسّ: كالسَّمْع والبَصَر، أو على مستوى الإدراك المجرَّد: كالعقل، أو على مستوى الشُّعور: كالقَلْب. فصارَت الأرضيَّة مهيَّئة لي تماماً كي أنتقِل من حالةِ الجهل إلى حالةِ العِلْم والمعرفة.

[٢٨٨] فمع أنّي جئتُ إلى الدُّنيا وحيداً، وسأخرُج منها وحيداً، لكنَّك كثَّرتني في الدُّنيا بالأرْحامِ والعشيرة والذُّرية.

[٢٨٩] سالِماً إلى وطني في أسْفاري المتكرِّرة.

[٢٩٠] بنعَمه الكثيرة، فصِرْتُ غنيًّا لا أمدُّ يدَ الحاجة للآخرين، إلا إليهِ تعالى.

[٢٩١] أطلبُ منهُ النَّصرَ على عدوِّي ومن ظلَمني، فنصَرني عليه.

[٢٩٢] غنيًّا لا أمدُّ يدَ الحاجة للآخرين، فلم يسلُبْني تلكَ النِّعَم.

[٢٩٣] فحتى لو أمسَكْتُ و لم أطلُبْ منهُ الشِّفاء، والكِساء، والطَّعام، والشَّراب، والعزَّة، والمعرفة، والتَّكثير، والعودَة إلى الوطنِ سالِماً بعدَ السَّفر، والغِنى عن الاحتياج للآخرين، والنَّصر على الأعداء، وعدَم سَلْب النِّعَم...حتى لو لم أطلُبْ منهُ ذلكَ كلَّه، هو يُعطي ويَهَب النِّعَم ابتداءً، لأنَّهُ تعالى هو المنَّان.

[٢٩٤] وتجاوَزَ عن سَقْطَتي وزلّتي.

[٢٩٥] ففي مرات كثيرة كادَ الغَمُّ أنْ يأخُذَ أنفاسي، لكنَّك نفَّسْتَ وفرَّجت عني تلكَ الشِّدة.

[٢٩٦] كما وعَدْتَ في كتابِكَ فقُلْت: "ادْعُوني أستجِبْ لكُم" (غافر، ٦٠).



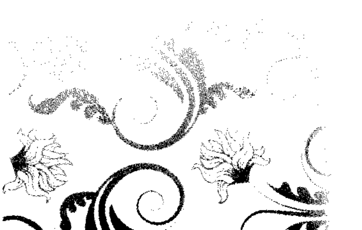
[297] سواء العَوْرة الجسَديَّة من خلالِ ما أنزلتَ من لباسٍ يواري سَوْأتي، أو العَوْرة المعنويَّة من خلال ما خلَقْتَ من أزواجٍ صِرْن بمثابةِ اللِّباس الذي يستُر نقاط الضَّعف، أو من خلال سَتْر عيوبي بأنحاءٍ مختلفة من السَّتْر.

[298] حتى لو كانَت تلكَ الذُّنوب على مستوى تَرْك الأولى (= الأوامر الإرشادية غير الملزمة).

[299] أوصَلَني إلى هدَفي وغايَتي من خلال السُّنن الجارية في الكون.

[300] رغم أنَّ الظُّروف والشُّروط المادِّية للنَّصر لم تكُن مكتملة.

[301] لكنِّي سأحاول أنْ أستذْكِر بعض تلكَ النِّعَم والمِنَن...





يا مَوْلايَ[302] أَنْتَ الَّذي مَنَنْتَ[303]، أَنْتَ الَّذي أَنْعَمْتَ[304]، أَنْتَ الَّذي

---

[302] ابتداءً من هُنا سيبدأ (ع) بنسبة كل ما أصابَهُ من حسنة إلى الله تعالى، انطلاقاً من الأدَب الربَّاني الذي أدَّب اللهُ به رسولَهُ (ص) في قوله تعالى: "مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا" (النساء، ٧٩).

[303] مَنَنْت: أعطَيْتَ ابتداءً دونَ فَخْرٍ بالإنعام. فهو سبحانَهُ: "يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" (إبراهيم، ١١). وقد منَّ على المؤمنين ببعثة رسول الله (ص)، يقول تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (آل عمران، ١٦٤). وسيَمُنُّ على الذين استُضْعِفُوا في الأرض، يقولُ تعالى: "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ" (القصص، ٥). وسيَمُنُّ على المؤمنين في الآخرة، عندما يتحدَّثونَ فيما بينَهُم ويقولون: "فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ" (الطور، ٢٧).

[304] أنعَمْت: بالصَّنائع والمِنَن وبكلِّ ما يؤدِّي إلى سُهولة الحياة ورفْع البأْساء والشَّدائد. يقولُ تعالى: "وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" (لقمان، ٢٠). والذينَ أنعمَ اللهُ عليهم هُم الذينَ هداهُم إلى صِراطِه المستقيم، ونحنُ في كلِّ صلاةٍ ندعو "اهدنا الصِّراطَ المسْتَقيم صِراطَ الذينَ أنعَمْتَ عليهِم" (الحمد، ٥)...لكن من هُم الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم؟ تجد الجواب في قولِه: "الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا" (النساء، ٦٩). والقرآن تحدَّث كثيراً عن نِعَمِ الله على بني إسرائيل، حيثُ جعلَ فيهم أنبياءَ وجعلَهُم ملوكاً وآتاهُم ما لم يُؤْتِ أحداً من العالَمين. وتحدَّثَ أيضاً عن نعَمِهِ على المؤمنين عندما غيَّر اتجاه القبلة وأعطى المسلمين هُويَّة خاصَّة بهم، وعندما استبدَلَ تكليف الوضوء والغُسْل - في حالاتٍ معيَّنة - بالتيمُّم، وتحدَّثَ عن نِعَم أخرى من قبيل الظِّلال والجبال والسَّرابيل الواقية من الحرِّ والبأْس، وتأليف قلوب المؤمنين، وكف أيدي الأعداء عنهم. وطالبَ سبحانَهُ النَّاسَ بشُكْرِ وتقدير النِّعم، وذكرَ بأنَّ الإنسان - عادةً - إذا أنعَمَ اللهُ عليهِ أعرضَ ونآى بجانبِه، لكن من فضلِه تعالى أنَّهُ لم يكُ مغيراً نعمَةً أنعمَها على قومٍ حتى يُغيِّروا ما بأَنْفُسِهِم.

أَحْسَنْتَ[٣٠٥]، أَنْتَ الَّذي أَجْمَلْتَ[٣٠٦]، أَنْتَ الَّذي أَفْضَلْتَ[٣٠٧]، أَنْتَ الَّذي أَكْمَلْتَ[٣٠٨]، أَنْتَ الَّذي رَزَقْتَ[٣٠٩]، أَنْتَ الَّذي وَفَّقْتَ[٣١٠]، أَنْتَ الَّذي أعْطَيْتَ[٣١١]،

---

[٣٠٥] أحسَنْت: فلا يَصْدُر عنكَ إلا ما هو حسَن ولا تصْدُر عنكَ إساءة. والقرآن أكَّد بأنَّ "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ" (يونس، ٢٦)، وأنَّ إحسانَ العبْد لن يُواجَه إلا بإحسان الرَّب، فقالَ سبحانَهُ"هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ؟ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" (الرحمن، ٦٠-٦١). وتحدَّثَ يوسُف (ع) عن إحسانِ الله به عندما راودَتْهُ إمرأةُ عزيز مصْر عن نفسه، فقالَ "مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" (يوسف، ٢٣)، وتحدَّثَ (ع) مرةً أُخرى عن إحسان الله به عندما رفعَ أبويه على العَرْشِ وخرُّوا له سُجَّداً، فقال "يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" (يوسف، ١٠٠).

[٣٠٦] أجْمَلْت: فلا يَصْدُر عنكَ إلا ما هو جميل ولا يَصْدر عنكَ قبيح. واللهُ سبحانَهُ أمَرَ في القرآنِ بالصَّبرِ الجميل والصَّفْح الجميل.

[٣٠٧] أفضَلْت: أنَلْتَني من فضلك وزدتَّني وأحسَنْتَ إليَّ. والفَضْلُ – لغةً – ضد النَّقْص. واللهُ سبحانَهُ كرَّمَ بني آدم وفضَّلَهُم على كثيرٍ ممن خلَق، يقولُ تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء، ٧٠)، وفضَّلَ بعض رسله على بعض، فقال: "تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ" (البقرة، ٢٥٣)، وفضَّلَ بعض عباده على بعض، فقال: "انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا" (الإسراء، ٢١)، وتقديرُ الفَضْل وترجيحُ بعضٍ على آخر في التَّفضيل بيدِ الله تعالى، حيثُ قال "ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (الجمعة، ٤). ويؤكِّد سبحانَهُ على أنَّه لولا فضْلُهُ علينا لاتَّبعنا الشَّيطان إلا قليلاً، وأنَّه لولا فَضْلُهُ علينا ما زكا منَّا من أحد أبداً. لكن ما موقف الناس في قبال فضله تعالى؟ يقول: "إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ" (البقرة، ٢٤٣).



أعْطَيْتَ[٣١١]، أنْتَ الَّذي أغْنَيْتَ[٣١٢]، أنْتَ الَّذي أقْنَيْتَ[٣١٣]، أنْتَ الَّذي آوَيْتَ[٣١٤]،

---

[٣٠٨] أكمَلْت: أوصَلْتَ الأشياء إلى حدِّ الكمال، ومن أبرز مصاديق ذلك، إكمالُكَ ديني. يقول تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (المائدة، ٣).

[٣٠٩] رزَقْت: قدَّرت نصيباً من الطَّيبات والمعارف. والرِّزق – لغةً – معناهُ معروف. ذكر في لسانِ العرب: الأرزاق نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنُّفوس كالمعارف والعلوم. قالَ تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" (هود، ٦). واللهُ سبحانَهُ طلَبَ من المؤمنين أنْ يشكُروا ذلك، يقولُ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" (البقرة، ١٧٢)، وأنْ يُنفقوا مما رزَقَهم اللهُ تعالى وأنْ لا يبخَلوا، فقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (البقرة، ٢٥٤).

[٣١٠] التَّوفيق هو موافقة الحوادث لما فيه الرُّشد والصَّلاح، وهذا لا يتحقَّق إلا بتسديد الله تعالى. قالَ تعالى على لسانِ شُعيب (ع): "وما توفيقي إلا باللهِ عليهِ توكَّلتُ وإليهِ أُنيب" (هود، ٨٨).

[٣١١] "العَطْو" أصلاً يعني "التناوُل"، و"المعاطاة" يعني المناوَلَة، والإسم "العطَاء"، و"العطية" الشيء المعْطى. واللهُ سبحانَهُ هو "الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ" (طه، ٥٠)، وعطاؤهُ متاحٌ للجميع وغير محظور على أحد، يقولُ تعالى: "كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا" (الإسراء، ٢٠).

[٣١٢] الغنيُّ هو الذي لا يحتاجُ إلى أحدٍ في شيء، واللهُ سبحانَهُ ليسَ غَنيًّا فحسب، بل هو المغني أيضاً الذي يجعل غيرَهُ ليس بحاجةٍ إلى غيرِه. فهو الذي أغنى رسولَهُ كما في قولِه تعالى: "وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ" (الضحى، ٨)، وهو المغني للفقراء "إنْ يكونوا فقراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ من فضلِه" (النور، ٣٢).

[٣١٣] أقنى: أعطاهُ ما يَقتني من القِنْية، أي ما يدَّخِر من النِّعم المادِّية والمعنويَّة. يقولُ تعالى "وأنَّهُ هو أغنى وأقنى" (النجم، ٤٨).



أنْتَ الَّذي كَفَيْتَ[٣١٥]، أَنْتَ الَّذي هَدَيْتَ[٣١٦]، أَنْتَ الَّذي عَصَمْتَ[٣١٧]، أَنْتَ الَّذي سَتَرْتَ[٣١٨]، أَنْتَ الَّذي غَفَرْتَ[٣١٩]، أَنْتَ الَّذي أَقَلْتَ[٣٢٠]، أَنْتَ الَّذي مَكَّنْتَ[٣٢١]،

---

[٣١٤] آوى فلاناً إذا أنزَلَهُ بهِ وتكفَّل بتوفير مكان يحميه، وردَّهُ وأرجعَهُ إلى مأوى و لم يتركه مشرَّداً. واللهُ سبحانَهُ هو الذي آوى رسولَهُ كما في قوله تعالى: "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ" (الضحى، ٦)، وهو الذي آوى المؤمنين كما في قوله تعالى: "وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (الأنفال، ٢٦).

[٣١٥] كفى يكفي كفاية إذا قامَ بالأمر وتكفَّل بمعالجتِه، يقول تعالى: "أليسَ اللهُ بكافٍ عبدَهُ" (الزمر، ٣٦).

[٣١٦] هدى يعني أرشدَ ودلَّ على الطَّريق. واللهُ سبحانَهُ هو الذي هدى رسولَهُ كما في قولهِ تعالى: "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ" (الضحى، ٧)، وهو الذي هدى المؤمنين كما في قولهِ: "وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ" (البقرة، ١٩٨).

[٣١٧] عصَمَ يعني منعَ وحفظَ ووقى. فاللهُ سبحانه هو الذي عصَمَ رسولَهُ كما في قوله تعالى: "واللهُ يعْصِمُكَ من النَّاس" (المائدة، ٦٧)، واللهُ سبحانَهُ يعصِم ويحفَظ ويقي ويهدي من يعتَصِم به، يقولُ: "ومن يعتَصِم باللهِ فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم" (آل عمران، ١٠١).

[٣١٨] سترَ الشيء: أخفَاهُ وغطَّاهُ. وقد وردَ في دعاءِ أبي حمزة الثمالي لزين العابدين (ع): "أي ربِّ جلِّلني بسِتْرِك واعْفُ عن توبيخي بكرمِ وجهِك، فلو اطَّلعَ اليومَ على ذنبي غيرُكَ ما فعلتُهُ، ولو خِفْتُ تعجيلَ العقوبةِ لاجتنبْتُهُ، لا لأنَّكَ أهوَنُ الناظرينَ إليَّ، وأخفُّ المطَّلعينَ عليَّ، بل لأنَّكَ يا ربِّ خيرُ السَّاترين وأحكمُ الحاكمين وأكرَمُ الأكرمين، ستَّارُ العيوب غفَّارُ الذُّنوب، تستُرُ الذَّنْبَ بكرمِك وتُؤخِّرُ العقوبةَ بحِلْمِك".

[٣١٩] الغَفْر: التَّغْطية والسِّتر. فعندما يغفِر اللهُ الذَّنب يُغطِّي عليهِ ويستُره ويعفو ويتجاوَز عنهُ فلا يظهر لَهُ في الآخرةِ أثر. يقولُ سبحانَهُ: "واستغفروا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم" (البقرة، ١٩٩)، وهو وحدَهُ غفَّار الذُّنوب كما في قولهِ: "ومن يغفِر الذُّنوبَ إلا اللهُ؟!" (آل عمران، ١٣٥). وقد يُقال أنَّ الفرْقَ بينَ "السَّتَّار" و"الغفَّار" أنَّ السَّتَّار هو الذي يستُر



أَنْتَ الَّذي أَعْزَزْتَ[٣٢٢]، أَنْتَ الَّذي أَعَنْتَ[٣٢٣]، أَنْتَ الَّذي عَضَدْتَ[٣٢٤]، أَنْتَ الَّذي أَيَّدْتَ[٣٢٥]، أَنْتَ الَّذي نَصَرْتَ[٣٢٦]، أَنْتَ الَّذي شَفَيْتَ[٣٢٧]، أَنْتَ الَّذي عافَيْتَ[٣٢٨]،

الذَّنب وإنْ بقيَت آثارُهُ ومضاعفاتُهُ في الدُّنيا، والغفَّار هو الذي يستُر الذَّنب ويمحو آثارَهُ في الآخرة.

[٣٢٠] الإقالة في اصطلاحِ الفُقهاء يعني رفعُ العقْدِ وإلغاءُ حُكمِهِ وآثارِهِ بتراضي الطَّرفين. والبائِعُ يُقيلُ المشتري إذا قبِلَ منهُ إرجاع السِّلعة وأرجعَ الثَّمن له. والإسلام حثَّ على الإقالة، فقد وردَ في الحديث "من أقالَ أخاهُ بيعاً أقالَهُ الله عثرتَهُ يوم القيامة". على ضوءِ ذلك، اللهُ سبحانه يُقيلُ عبدَهُ إذا قبِل توبتَهُ، فكأنَّ الذَّنب هو السِّلعة التي يندَم المذْنِب على اكتسابها.

[٣٢١] مكَّنَ يعني أعطاهُ القُدْرة والاستطاعة. واللهُ سبحانَهُ مكَّن البشَر في الأرض تمكيناً عامَّاً، يقولُ تعالى: "ولقد مكَّناكُم في الأرضِ وجعَلْنا لكُم فيها معايش قليلاً ما تَشْكُرون" (الأعراف، ١٠)، وقد يمكِّن البعض تمكيناً خاصَّاً، فتكون أزمَّة الأمور بيدِه، يقول: "الذينَ إنْ مكَّناهم في الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونَهوا عن المنكرِ ولله عاقبةُ الأمور" (الحج، ٤١). والله مكَّنَ ليوسُف (ع) وذي القرنين في الأرض، ووعَدَ "الَّذينَ آمَنُوا منْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذي ارْتَضَىٰ لَهُمْ" (النور، ٥٥).

[٣٢٢] العزيز هو الرَّفيع المتَنِع القوي الذي لا يُغلَب ولا يُقهَر، والعِزُّ خِلافُ الذُّل. والعزَّة بالأصالة لله تعالى، ومن يريدُ العزَّةَ الحقيقيَّة فلابدَّ أنْ يستمدَّها منهُ، يقولُ: "من كانَ يريدُ العزةَ فلله العزَّةُ جميعاً" (فاطر، ١٠)، فهو المعِزُّ وهو المذِل "تعزُّ من تشاء وتُذلُّ من تشاء بيدِكَ الخير إنَّكَ على كلِّ شيء قدير" (آل عمران، ٢٦).

[٣٢٣] العَوْن: الظَّهير على الأمر. والظَّهير والنَّاصِر والمعين الحقيقي هو الله وحدَهُ، ونحنُ نقرأ في صلاتِنا كلِّ يومٍ: "إيَّاك نستَعين" (الحمد، ٥).

[٣٢٤] عضُد الإنسان ساعِدُهُ وهو ما بينَ المرفَق إلى الكتف. وعضُد الرَّجُل أنصارُهُ وأعوانُهُ. والاعتضاد يعني التقوِّي والاستعانة. والمعنى هنا: أنتَ يا الله الذي قوَّيْتني وأعَنْتني عندما ظهرَ مني شيء من القوَّة والقُدْرة.



أَنْتَ الَّذي اَكْرَمْتَ[٣٢٩]، تَبارَكْتَ وَتَعالَيْتَ[٣٣٠]، فَلَكَ الْحَمْدُ دائِماً، وَلَكَ الشُّكْرُ واصِباً[٣٣١] أَبَداً.

---

[٣٢٥] أيّد فلاناً يعني قوّاهُ وأمدَّهُ بالقُدرة، فكأنَّه وضَعَ يدَهُ لصالِح فلان. واللهُ سبحانَهُ هو الذي أيَّدَ رسولَهُ بنصرِهِ وبالمؤمنين كما في قولِه تعالى: "وإنْ يُريدوا أنْ يخدَعوكَ فإنَّ حسبَكَ اللهُ هو الذي أيَّدَكَ بنصرِه وبالمؤمنين" (الأنفال، ٦٢)، وهو سبحانَهُ الذي أيَّدَ المؤمنين بنصرِه كما في قولِه: "وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (الأنفال، ٢٦).

[٣٢٦] نصَرَهُ يعني أعانَهُ على عدوِّه. واللهُ سبحانَهُ هو الذي نصرَ رسولَهُ كما في قولِه: "وينصُرَكَ اللهُ نصراً عزيزاً" (الفتح، ٣)، وهو سبحانَهُ نصرَ المؤمنين في مواطِنَ كثيرة، يقول تعالى: "لقد نصرَكُم اللهُ في مواطِنَ كثيرة" (التوبة، ٢٥)، و"إنْ ينصُركم اللهُ فلا غالِبَ لكُم" (آل عمران، ١٦٠).

[٣٢٧] شفاهُ يعني أبرأهُ من السَّقَم، كما في قولِه تعالى على لسانِ إبراهيم (ع): "وإذا مرِضْتُ فهو يَشفين" (الشعراء، ٨٠). واللهُ سبحانَهُ هو المشافي الحقيقي، أما علاج الطَّبيب واستخدام الأدْوية والقيام بعمليَّات جراحيَّة فهذه عِلَلٌ إعداديَّة ومقدِّمات سبَبيَّة لحصول الشِّفاء.

[٣٢٨] عافاهُ الله يعني وهبَ له الصِّحة والعافية وأرجعَ له حالة الاعتدال في الجِسْمِ أو العقل.

[٣٢٩] أكرَمَهُ الله يعني عظَّمَهُ وجعلَهُ كريماً غير مهان. واللهُ سبحانَهُ هو المكرِم، يقولُ تعالى: "ومن يُهِن اللهُ فما لهُ من مُكرِمٍ إنَّ الله يفعَلُ ما يشاء" (الحج، ١٨)، وقالَ على لسانِ الرَّجُل الذي قيلَ لهُ ادخُل الجنة: "قالَ يا ليتَ قومي يعلمونَ بما غفرَ لي ربِّي وجعلني من المكرَمين" (يس، ٢٧).

[٣٣٠] البركة يعني النَّماء والزيادة. وتباركَ اللهُ وتعالى يعني تقدَّسَ وتنزَّهَ وارتفعَ وتعاظم.

[٣٣١] لكَ الشُّكرُ دائِماً ثابِتاً.



ثُمَّ أَنَا يا أِلَهي الْمُعْتَرِفُ بِذُنُوبي فَاغْفِرْها لي[٣٣٢]، أَنَا الَّذي أَسَأْتُ[٣٣٣]، أَنَا الَّذي أَخْطَأْتُ[٣٣٤]، أَنَا الَّذي هَمَمْتُ[٣٣٥]، أَنَا الَّذي جَهِلْتُ[٣٣٦]، أَنَا الَّذي غَفِلْتُ[٣٣٧]، أَنَا

---

[٣٣٢] ابتداءً من هنا سيبدأ (ع) بنسبة كلّ ما أصابَهُ من سيئة إلى نفسه، انطلاقاً من الأدَب الربَّاني الذي أدَّب اللهُ به رسولَهُ (ص) في قولِه تعالى: "مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا" (النساء، ٧٩).

[٣٣٣]أسأْتُ يعني عمَلْتُ عمَلاً سيِّئاً. والعمَلُ السيِّءِ هو العمَلُ الضَّار الذي يسوءُ الإنسان في دارِ الدُّنيا أو دارِ الآخرة أو في الدَّارين، في مقابل العمَل الصَّالح النافع الذي يرى الإنسان أثرَهُ الطيِّب في الدُّنيا أو في الآخرة أو في الدَّارين. بالنسبةِ للعمَلِ السيِّءِ والإعراض عن ذكرِ الله، يقولُ تعالى: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ" (طه، ١٢٤). وبالنسبة للعمَلِ الصالح، يقول: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل، ٩٧).

[٣٣٤]أخطأْتُ يعني سلَكْتُ سبيلَ الخطأ، والخطأ ضد الصَّواب. يقولُ تعالى: "رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا" (البقرة، ٢٨٦).

[٣٣٥] هَمَمْتُ يعني كانت عندي نيَّة وإرادة وعَزْم على فعلٍ ما لا يليق. يقولُ تعالى في قصَّةِ يوسُف (ع) وزليخا: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" (يوسف، ٢٤). فلولا أنْ رأى بُرهانَ ربِّه، ولولا التَّسديد والحفْظ الإلهي، لكانَ قد همَّ بها.

[٣٣٦]جهلْت يعني لم أعرف. واللهُ سبحانَهُ حذَّرَ رسولَهُ (ص) من أنْ يكونَ من الجاهلين، فقال: "وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ" (الأنعام، ٣٥). وكذلك حذَّر نوحاً (ع) بشأن ابنه: "قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ" (هود، ٤٦). وكانَ يوسُف (ع) يخشى من التورُّط بالجهل عندَ محاولات النِّسوة الإيقاع به: "قَالَ رَبِّ



الَّذي سَهَوْتُ[٣٣٨]، أنَا الّذي اعْتَمَدْتُ[٣٣٩]، أنَا الَّذي تَعَمَّدْتُ[٣٤٠]، أنَا الَّذى وَعَدْتُ[٣٤١]، وَأَنَا الّذي أَخْلَفْتُ[٣٤٢]، أَنَا الّذي نَكَثْتُ[٣٤٣]، أنَا الَّذي أَقْرَرْتُ[٣٤٤]، أَنَا الَّذي اعْتَرَفْتُ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَعِنْدي، وَأَبُوءُ بِذُنُوبِي[٣٤٥] فَاغْفِرْها لي.

السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ" (يوسف، ٣٣).

[٣٣٧] غفلْت يعني تركْت وسهَوْت عن الأهم وانشغلَ قلبي بما لا يليق أو بما هو أقل أهمية. يقولُ تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ" (الأعراف، ١٧٢).

[٣٣٨] سهَوْت يعني نسيتُ الأمْرَ وغفَلْتُ عنهُ وذهبَ قلبي عنهُ إلى غيرِه. وقد يُقال أنَّ الفَرْقَ بين الغفلةِ والسَّهْو، أنَّ الغفلةَ قد تحدُث في الأمورِ الخطيرة والاستراتيجيَّة والأُصول والرُّؤية الكونيَّة الصَّحيحة، في حين أنَّ السَّهو يحدُث في الأمور الجزئيَّة والفُروع.

[٣٣٩] اعتمَدْت يعني قصَدْتُ فعلَ الشيء. واعتمَدْتُّ على الشَّيء يعني توكَّأتُ عليه. وعلى الاحتمال الثاني يكون المعنى: أنا الذي توكَّأت على ما لا ينبغي، كالصَّحة والقوَّة والمال والعِلْم والجاه....إلخ، لأنَّ الاعتماد الحقيقي يُفترض أنْ لا يكون إلا على اللهِ سبحانه، لأنَّ كلّ ما سواهُ فان وزائل ولا يمكن الاتِّكاء عليه.

[٣٤٠] تعمَّدْتُ يعني بعض الأفعال السيِّئة لم تصدُر مني خطأً أو سهواً وغفلةً بل عن تعمُّدٍ وقَصْد.

[٣٤١] وعَدْتُ يعني ألزَمْتُ نفْسي بأمْرٍ ما. يقول تعالى: "وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ" (التوبة، ١١٤).

[٣٤٢] لم أفِ ولم ألتزم بما ألزَمْتُ نفْسي.

[٣٤٣] نكَثْتُ يعني نقَضْتُ العهدَ بعدَ إحكامه، كما تُنكَث خيوط الصُّوف المغزول بعد إبرامه.



يا مَنْ لا تَضُرُّهُ ذُنُوبُ عِبادِهِ، وهُوَ الغَنِيُّ عَنْ طاعَتِهِمْ[٣٤٦]، وَالْمُوَفَّقُ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْهُمْ بِمَعُونَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَلَكَ الْحَمْدُ إلهي وَسَيِّدي. إلهي أَمَرْتَني فَعَصَيْتُكَ، وَنَهَيْتَني فَارْتَكَبْتُ نَهْيَكَ، فَأَصْبَحْتُ لا ذا بَراءَةٍ لي فَأَعْتَذِرُ[٣٤٧]، وَلا ذا قُوَّةٍ فَأَنْتَصِرُ[٣٤٨]، فَبِأَيِّ شَيءٍ أَسْتَقْبِلُكَ يا مَوْلايَ؟ أَبِسَمْعي؟ أَمْ بِبَصَري؟ أَمْ بِلِساني؟ أَمْ بِيَدي؟ أَمْ بِرِجْلي؟ أَلَيْسَ كُلُّها نِعَمَكَ عِندي، وَبِكُلِّها عَصَيْتُكَ؟[٣٤٩] يا مَوْلايَ،

---

[٣٤٤] أقرَرْتُ يعني أذعَنْتُ للحقِّ واعترفتُ به.

[٣٤٥] أبوءُ بذنوبي يعني أُقرُّ بها وأرجع عنها.

[٣٤٦] فالعبادُ هم الفُقراء، وهم المحتاجونَ إلى الغنيِّ المطلق، يقولُ تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (فاطر، ١٥-١٦).

[٣٤٧] "فلو كنتُ بريئاً لكانَ لي أنْ أعتذِر، فيكون عُذْري بأنِّي بريئ، ولسْتُ مستحِقّاً للعُقوبة.

[٣٤٨] ولو كانَ لي حولٌ وقوة لانتصَرْتُ لِنفسي، وفرَرْتُ من العقوبةِ أو خلَّصْتُ نَفْسي منها بطريقةٍ ما.

[٣٤٩] هذه العبارات من أروَع عبارات الدُّعاء، تهزُّ الإنسان من أعماقِ وجدانه، وتُعبِّر عن مشاعرِ حياء العبد تجاهَ ربِّه، فإنْ كانت الأُذْن (آله السَّمْع)، والعَيْن (آلة البَصَر)، واللِّسان (آلة النُّطق)، واليَد (آلة تحريك الأشياء)، والرِّجْل (آلة التنقُّل)، كلُّها من نِعَم الله تعالى، فأنا – يا إلهي - بكُلِّ هذه النِّعم قد عصَيْتُك. عصيتُكَ عندما سمعتُ بأُذُنايَ ما لا يَليق، ونظرتُ بعينايَ إلى ما لا يَليق، ونطَقْتُ بلساني بما لا يَليق، واستخدَمْتُ يداي بما لا يَليق، وهكذا رجلاي استخدمْتُهما للسَّيرِ إلى لا يليق.....إذن بأيِّ شيءٍ أستقبلُكَ يا مولاي؟ وأنا قد استخدَمْتُ جميعَ هذهِ النِّعمْ في معصيتك؟!! إذا تأمَّلَ القلبُ هذهِ الحقيقة بعُمْق، تصدَّع وذابَ حياءً من اللهِ تعالى، حتى لو كانَ حجَرَاً صلْداً.



فَلَكَ الْحُجَّةُ وَالسَّبيلُ عَليَّ. يا مَنْ سَتَرَني مِنَ الآباءِ وَالأُمَّهاتِ أَنْ يَزجُرُوني[٣٥٠]، وَمِنَ الْعَشائِرِ وَالإخْوانِ أنْ يُعَيِّرُوني[٣٥١]، وَمِنَ السَّلاطينِ أَنْ يُعاقِبُوني[٣٥٢]، وَلَوِ اطَّلَعُوا يا مَوْلايَ عَلى مَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنّي اِذاً ما اَنْظَرُوني[٣٥٣]، وَلَرَفَضُوني وَقَطَعُوني، فَها أَنَا ذا يا إِلهي بَيْنَ يَدَيْكَ يا سَيِّدي خاضِعٌ ذَليلٌ، حَصيرٌ حَقيرٌ[٣٥٤]، لا ذُو بَرآءَة فَأَعْتَذِرَ[٣٥٥]، وَلا ذُو قُوَّة فَأَنْتَصِرَ[٣٥٦]، وَلا حُجَّة فَأَحْتَجُّ بِها[٣٥٧]، وَلا قائِلٌ لَمْ أَجْتَرِحْ[٣٥٨]، وَلَمْ أَعْمَلْ سُوءاً، وَما عَسَى الْجُحُودُ وَلَوْ جَحَدْتُ يا مَوْلايَ يَنْفَعُني[٣٥٩]، كَيْفَ وَأَنّى ذلِكَ وَجَوارِحي[٣٦٠] كُلُّها شاهِدَةٌ عَلَيَّ بِما قَدْ عَمِلْتُ[٣٦١]،

---

[٣٥٠] يا من سَتَرَ نقاط ضَعْفي عن الآباء والأُمَّهات، ولم يُعطِهم المبرِّر حتى يَزْجُروني. والزَّجْر: المَنْع والنَّهي.

[٣٥١] يا من سَتَرَ نقاط ضَعْفي عن العشائر والإخوان، ولم يُعطِهم المبرِّر حتى يَعيبُوا عليَّ.

[٣٥٢] يا من سَتَرَ نقاط ضَعْفي عن السَّلاطين، الذين قد يتَّخذون قرارات اعتباطية معيَّنة، يُعاقبونَ من خالفَها، فأخالِفها دون أنْ تكشِف – يا إلهي - ذلكَ لهم، فتَسْتُرَ ذلك ولا تجعَل لهم عليَّ سبيلاً.

[٣٥٣] أمهَلوني.

[٣٥٤] محبوسٌ ومحصور، صغيرٌ وذليل.

[٣٥٥] مرةً أخرى: لو كنْتُ بريئاً لكانَ لي أنْ أعتذر، فيكون عُذْري بأنّي بريء، ولسْتُ مستحقّاً للعُقوبة.

[٣٥٦] ولو كانَ لي حولٌ وقوة لانتصرْتُ لنفسي، وفرَرْتُ من العقوبة، أو خلَّصتُ نَفْسي منها بطريقة ما.

[٣٥٧] ولو كانَ لديَّ أدلَّة وبراهين أحتجُّ بها بأنّي غير مستحق للعقوبة، لاحتَجَجْتُ بها وهانَ الأمر.

[٣٥٨] ولم اكتَسِب وأرتكِبْ ما اكتَسَبْت وارتكَبْتُ.

[٣٥٩] فالإنكار لا ينفعني، لثبوت الإدانة ووجود شهود لا يمكن ردُّ شهادتِهم أبداً.

[٣٦٠] جوارِحُ الإنسان أعضاؤهُ وعوامِلُ جسدِه، كيديه ورجليه.



وَعَلِمْتُ يَقيناً غَيْرَ ذي شَكٍّ أَنَّكَ سائِلي مِنْ عَظائِمِ الأُمُورِ، وَأَنَّكَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذي لا تَجُورُ، وَعَدْلُكَ مُهْلِكي[٣٦٢]، وَمِنْ كُلِّ عَدْلِكَ مَهْرَبي، فَإِنْ تُعَذِّبْني يا إِلهي فَبِذُنُوبي بَعْدَ حُجَّتِكَ عَلَيَّ، وَإِنْ تَعْفُ عَنّي فَبِحِلْمِكَ وَجُودِكَ وَكَرَمِكَ.

لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمينَ[٣٦٣]، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الْمُسْتَغْفِرينَ[٣٦٤]، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الْمُوَحِّدينَ[٣٦٥]، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الْخائِفينَ، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الْوَجِلينَ[٣٦٦]، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الرّاجينَ[٣٦٧]، لا إِلهَ

---

[٣٦١] يقولُ تعالى: "يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النور، ٢٤). ويقولُ تعالى: "وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (فصلت، ٢١-٢٣). ويقولُ تعالى: "الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (يس، ٦٥).

[٣٦٢] لأنّك لو عاملتَني بعدْلك لهلَكت، لأنَّ الإدانة ثابتة في حقّي، وبالتالي أنا مستحقٌّ للعقوبة...لكن أمَلي ورَجائي أنْ تُعاملْني بفضلكَ لا بعَدْلك.

[٣٦٣] وهي كلمةُ يونُس (ع) إذ ذهَبَ مُغاضباً، فظنَّ أنْ لنْ يَقْدرَ الله عليه، فنادى في الظُّلمات بهذه الكلمات النُّورانية، فاستجابَ اللهُ لهُ ونجّاهُ من الغمِّ، وكذلك يُنْجي المؤمنين.

[٣٦٤] أنزِّهُكَ عن كلِّ نَقْصٍ، وأُردِّد دائماً "استغفرُ اللهَ ربّي وأتوبُ إليه".

[٣٦٥] أنزِّهُك عن كلِّ نَقْصٍ، وأُردِّد دائماً "لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له".

[٣٦٦] الوجَل هو الخوف، لكن ربَّما درجة شديدة منه.



إلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الرّاغِبينَ[368]، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الْمُهَلِّلينَ[369]، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ السّائِلينَ[370]، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ انّي كُنْتُ مِنَ الْمُسَبِّحينَ[371]، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّى كُنْتُ مِنَ الْمُكَبِّرينَ[372]، لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحانَكَ رَبِّي وَرَبُّ آبائِيَ الأَوَّلينَ[373].

اَللّهُمَّ هذا ثَنائي عَلَيْكَ مُمَجِّداً[374]، وَإِخْلاصي بِذِكْرِكَ مُوَحِّداً، وَإِقْراري بِآلائِكَ مَعَدِّداً، وَإِنْ كُنْتُ مُقِرّاً أَنِيّ لَمْ أُحْصِها لِكَثْرَتِها وَسُبوغِها[375]، وَتَظاهُرِها[376] وَتَقادُمِها[377] إِلى حادِث، ما لَمْ تَزَلْ تَتَعَهَّدُني بِه[378] مَعَها مُنْذُ خَلَقْتَني وَبَرَأْتَني مِنْ اَوَّلِ الْعُمْرِ، مِنَ الإِغْناءِ مِنَ الْفَقْرِ، وَكَشْفِ الضُّرِّ، وَتَسْبيبِ الْيُسْرِ، وَدَفْعِ الْعُسْرِ،

---

[367] ممن يأمَل ويترقّب فضلَك وجودَك وكرمَك.

[368] راغبٌ بجنَّتك وثوابِكَ وقُرْبِكَ ورِضاك.

[369] أنزِّهُكَ عن كلِّ نقصٍ، وأُردِّد دائماً "لا إلهَ إلا الله".

[370] أنزِّهُكَ عن كلِّ نقصٍ، وأعترف بأنّي محتاجٌ دائماً إليك، ولا أستغني عنك.

[371] أنزِّهُكَ عن كلِّ نقصٍ، وأُردِّد دائماً "سبحانَ ربِّي الأعلى وبحمدِهِ"، و"سبحانَ ربِّي العظيم وبحمدِه".

[372] أنزِّهُكَ عن كلِّ نقصٍ، وأُردِّد دائماً "اللهُ أكبر".

[373] وكانَ (ع) قد ذكرَهُم قبل ذلك، وهم: إبْراهيمَ وَإِسْماعيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ.

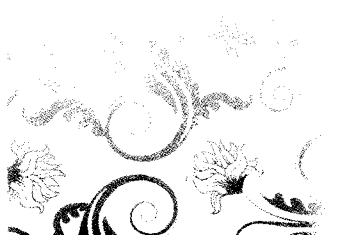
[374] معظماً وذاكراً لشرَفكَ الواسعِ.

[375] أسبغَ اللهُ عليهِ النِّعْمة يعني أتمَّها. يقولُ تعالى:"وأسبغَ عليكُم نعمَهُ ظاهرةً وباطنة" (لقمان، ٢٠).

[376] تراكُمِها وترابُطِها.

[377] ممتدَّة من القدَم إلى الآن.

[378] تعهَّدَ الشّيء وتعاهدَهُ: تفقَّدَهُ وأحدثَ العهْدَ به.





وَتَفريجِ الْكَرْبِ، وَالْعافيَةِ فِي الْبَدَنِ، وَالسَّلامَةِ فِي الدّينِ، وَلَوْ رَفَدَني عَلى قَدْرِ ذِكْرِ نِعْمَتكَ جَميعُ الْعالَمينَ مِنَ الأَوَّلينَ وَالآخرِينَ،، ما قَدَرْتُ وَلاهُمْ عَلى ذلكَ[٣٧٩]، تَقَدَّسْتَ وَتَعالَيْتَ مِنْ رَبٍّ كَريمٍ، عَظيمٍ رَحيمٍ، لا تُحْصى آلاؤُكَ، وَلا يُبْلَغُ ثَناؤُكَ، وَلا تُكافى نَعْماؤُكَ، فَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَتْمِمْ عَلَيْنا نِعَمَكَ، وَأَسْعِدْنا بِطاعَتِكَ، سُبْحانَكَ لا إِلهَ إِلاّ أَنْتَ.

اَللّهُمَّ إِنَّكَ تُجيبُ الْمُضْطَرَّ[٣٨٠]، وَتَكْشِفُ السُّوءَ[٣٨١]، وَتُغيثُ الْمَكْرُوبَ[٣٨٢]، وَتَشْفِي السَّقيمَ[٣٨٣]، وَتُغْنِي الْفَقيرَ، وَتَجْبُرُ الْكَسيرَ[٣٨٤]، وَتَرْحَمُ الصَّغيرَ، وَتُعينُ الْكَبيرَ، وَلَيْسَ دُونَكَ ظَهيرٌ[٣٨٥]، وَلا فَوْقَكَ قَديرٌ، وَأَنْتَ الْعَلِيُّ الْكَبيرُ، يا مُطْلِقَ الْمُكَبَّلِ الأَسيرِ، يا رازِقَ الطِّفْلِ الصَّغيرِ، يا عِصْمَةَ الْخائِفِ الْمُسْتَجيرِ، يا مَنْ لا

---

٣٧٩ ولو أعانَني على إحصاءِ نِعَمَك جميعُ الأوَّلينَ والآخِرين، لعجَزْتُ أنا وهُمْ عن القيامِ بذلك.

٣٨٠ المضطَّر مُفْتَعَلٌ من الضَّرِّ، وأَصْلُه مضْتَرَرٌ، فأُدْغِمَت الرَّاءُ وقُلِبَت التاءُ طاءً لأَجْلِ الضادِ. والمضطَّرُّ يعني الملهوف يستغيث.

٣٨١ السُّوء ما يسُوءُ الإنسان. يقولُ تعالى: "أمَّن يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ويكشِفُ السُّوء" (النمل، ٦٢).

٣٨٢ المكروب يعني الملهوف يطلُب النَّجْدَة.

٣٨٣ السَّقيم يعني المريض.

٣٨٤ تضُمُّ وتلحَمُ العِظام المكسورة. وربما إشارة إلى صاحبِ القَلْب المكسور، كما وردَ في الحديث القدسي: "أنا عندَ المنكسرةِ قلوبُهُم".

٣٨٥ لسْتَ بحاجة إلى مُعين.

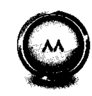


شَريكَ لَهُ وَلا وَزيرَ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَأعْطِني في هذِهِ الْعَشيَّة[٣٨٦]، أَفْضَلَ ما أَعْطَيْتَ وَأَنَلْتَ أَحَداً مِنْ عِبادِكَ، مِنْ نِعْمَة تُوليها، وَآلاءٍ تُجَدِّدُها، وَبَلِيَّةٍ تَصْرِفُها، وَكُرْبَةٍ تَكْشِفُها، وَدَعْوَةٍ تَسْمَعُها، وَحَسَنَةٍ تَتَقَبَّلُها، وَسَيِّئَةٍ تَتَغَمَّدُها، إِنَّكَ لَطيفٌ بِما تَشاءُ خَبيرٌ، وَعَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ.

اَللّهُمَّ إِنَّكَ أَقْرَبُ مَنْ دُعِيَ[٣٨٧]، وَأَسْرَعُ مَنْ أَجابَ، وَأَكْرَمُ مَنْ عَفى، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطى، وَأَسْمَعُ مَنْ سُئِلَ، يا رَحْمنَ الدُّنْيا والآخِرَةِ وَرَحيمَهُما، لَيْسَ كَمِثْلِكَ مَسْؤولٌ، وَلا سِواكَ مَأْمُولٌ، دَعَوْتُكَ فَأَجَبْتَني، وَسَأَلْتُكَ فَأَعْطَيْتَني، وَرَغِبْتُ إِلَيْكَ فَرَحِمْتَني، وَوَثِقْتُ بِكَ فَنَجَّيْتَني، وَفَزِعْتُ إِلَيْكَ فَكَفَيْتَني، اَللّهُمَّ فَصَلِّ عَلى مُحَمَّد عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَنَبِيِّكَ، وَعَلى آلِهِ الطَّيِّبينَ الطّاهِرينَ أَجْمَعينَ، وَتَمِّمْ لَنا نَعْماءَكَ، وَهَنِّئْنا عَطاءَكَ، وَاكْتُبْنا لَكَ شاكِرينَ، وَلآلائِكَ ذاكِرينَ، آمينَ آمينَ رَبَّ الْعالَمينَ.

[٣٨٦] العَشِيَّة ما بينَ زوال الشمس إلى غروبها. العَشِيَّة تعني أيضاً آخر النَّهار. والمقصود هنا عشيَّة يوم عرَفة.

[٣٨٧] يقولُ تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" (ق، ١٦). ويقولُ تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (البقرة، ١٨٦).



اَللّهُمَّ يا مَنْ مَلَكَ فَقَدَرَ[388]، وَقَدَرَ فَقَهرَ[389]، وَعُصِيَ فَسَتَرَ[390]، وَاسْتُغْفِرَ فَغَفَرَ[391]، يا غايَةَ الطّالِبينَ الرّاغِبينَ، وَمُنْتَهى أَمَلِ الرّاجينَ، يا مَنْ أَحاطَ بِكُلِّ شَىء عِلْماً، وَوَسِعَ الْمُسْتَقيلينَ[392] رَأفَةً وَحِلْماً.

---

[388] لأنَّ مالكيَّتَهُ للأشياء حقيقيَّة، لذا فهي لا تنفَكُّ عن القُدْرةِ على المملوك. بخلافِ المالك الاعتباري، الذي قد تنفَكُّ مالكيَّتَهُ عن قُدْرتِه على المملوك، فيكونُ مالكاً اعتباراً، غيرُ قادرٍ على مملوكِهِ... كما لو ملَكَ عبداً ثم فرَّ منهُ ذلكَ العبد، أو ملَكَ سيارةً فسُرِقَت منه.

[389] بسببِ شدَّة قدرته على مخلوقاتهِ قهرَها، فهي – كما وردَ في الدُّعاء – "بمشيئتكَ دون قولِكَ مؤْتَمرة، وبإرادتِكَ دونَ نهيكَ مُنْزَجِرة"، فمشيئةُ الله وإرادتهُ كفيلة بأنْ تقهَر الكائنات، دونَ حاجة لأمرٍ أو نهي. يقولُ تعالى: "إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (النحل، ٤٠)، ويشَرح لنا أميرُ المؤمنين (ع) ذلك في قولِه: "يقولُ لما أرادَ كونَهُ "كُنْ" فيكون، لا بصَوْتٍ يُقرَع، ولا بنِداءٍ يُسمَع، وإنَّما كلامُهُ سبحانَهُ فِعْلٌ منهُ أنشأَهُ ومثَّلَهُ، لم يكُنْ من قبْلِ ذلكَ كائِناً، ولو كانَ قديماً لكانَ إلهاً ثانياً" (نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦).

[390] لأنَّهُ ستَّارُ العيوب.

[391] لأنَّه غفَّارُ الذنوب.

[392] قُلنا أنَّ الإقالة في اصطلاحِ الفُقهاء يعني رفعُ العقْدِ وإلغاءُ حُكمِهِ وآثارِهِ بتراضي الطَّرفين. والبائعُ يُقيلُ المشتري إذا قبِلَ منهُ إرجاع السِّلعة وأرجعَ الثَّمن له، وعندئذٍ يكون المشتري مستقيلاً والبائع مقيلاً. على ضوءِ ذلك، اللهُ سبحانَهُ يُقيلُ عبدَهُ إذا قبِل توبتَهُ، فكأنَّ الذَّنب هو السِّلعة التي يندَم المذْنب على اكتسابها، وكأنَّ العقوبة هي الثَّمن التي يقبَل اللهُ سبحانَهُ أن يُسقِطها عن العبْد. وهو تعالى وسِعَ المستقيلينَ رأْفةً وحِلْماً.



اَللّهُمَّ إنّا نَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ في هذِهِ الْعَشيَّةِ[393] الَّتى شَرَّفْتَها وَعَظَّمْتَها بِمُحَمَّد نَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ، وَخِيَرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَأَمينِكَ عَلى وَحْيِكَ، الْبَشيرِ النَّذيرِ، السِّراجِ الْمُنيرِ[394]، الَّذى أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمينَ[395]، وَجَعَلْتَهُ رَحْمَةً لِلْعالَمينَ[396]، اَللّهُمَّ فَصَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، كَما مُحَمَّدٌ أَهْلٌ لِذلِكَ مِنْكَ، يا عَظيمُ فَصَلِّ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ الْمُنْتَجَبينَ الطَّيِّبينَ الطّاهِرينَ أَجْمَعينَ، وَتَغَمَّدْنا بِعَفْوِكَ عَنّا، فَإِلَيْكَ عَجَّتِ[397] الأَصْواتُ بِصُنُوفِ اللُّغاتِ[398]، فَاجْعَلْ لَنا اَللّهُمَّ فى هذِهِ الْعَشِيَّةِ نَصيباً مِنْ كُلِّ خَيْر تَقْسِمُهُ بَيْنَ عِبادِكَ، وَنُور تَهْدي بِهِ، وَرَحْمَة تَنْشُرُها، وَبَرَكَة تُنْزِلُها، وَعافِيَة تُجَلِّلُها[399]، وَرِزْق تَبْسُطُهُ[400]، يا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ[401]. اَللّهُمَّ اقْلِبْنا فى هذَا

---

[393] العشيَّة ما بينَ زوال الشَّمس إلى غروبها. العشيَّة تعني أيضاً آخر النَّهار.

[394] يقولُ تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا،وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا" (الأحزاب، ٤٥-٤٦).

[395] يقولُ تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (آل عمران، ١٦٤).

[396] يقولُ تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" (الأنبياء، ١٠٧).

[397] عجَّتْ يعني ارتفعَت.

[398] ففي عرَفة، عندما يجتمع الحُجَّاج من أقطار العالَم، من قوميَّات ولُغات مختلفة في مشهد مهيب، ترتفع أصواتُهم جميعاً، كلُّهم يَدْعونَ اللهَ سبحانَهُ، لكن بلُغات مختلفة.

[399] جلَّلَ الشيء تجليلاً أي عمَّ، يُقال "السَّحابُ يُجلِّل الأرضَ بالمطر" أي يعُمُّ.

[400] توسِّعه بجودك ورحمتك.

[401] يعني طالما أنَّ هذا اليوم هو يومُ عرفة، فلابد أنَّكَ يا الله سوف تُقْسِم الخيرَ بينَ عبادك، وتهدي بنورك، وتنشُرُ رحمتَك، وتُنزِلُ بركتَك، وتُجلِّلُ عافيتَك، وتبسُطُ رزْقَك....إذن اجعل لنا من هذا كلِّه نصيباً في هذهِ العشيَّة، ولا تحرِمْنا من ذلك.



الْوَقْت مُنْجحينَ مُفْلحينَ مَبْرُورينَ غانمينَ، وَلا تَجْعَلْنا منَ الْقانطينَ[٤٠٢]، وَلا تُخْلنا منْ رَحْمَتكَ، وَلا تَحْرِمْنا ما نُؤَمِّلُهُ منْ فَضْلكَ، وَلا تَجْعَلْنا منْ رَحْمَتكَ مَحْرُومينَ، وَلا لفَضْلِ ما نُؤَمِّلُهُ منْ عَطائكَ قانطينَ، وَلا تَرُدَّنا خائبينَ وَلا منْ بابكَ مَطْرُودينَ. يا أَجْوَدَ الأَجْوَدين، وَأَكْرَمَ الأَكْرَمينَ، إِلَيْكَ أَقْبَلْنا مُوقنينَ، وَلبَيْتكَ الْحَرامِ آمّينَ قاصدينَ، فَأَعنّا عَلى مَناسكنا، وَأَكْملْ لَنا حَجَّنا[٤٠٣]، وَاْعْفُ عَنّا وَعافنا، فَقَدْ مَدَدْنا إِلَيْكَ أَيْدينا فَهِيَ بِذلَّة الإِعْتراف مَوْسُومَةٌ[٤٠٤]. اَللّهُمَّ فَأَعْطنا فى هذه الْعَشيَّة ما سَأَلْناكَ، وَاكْفنا مَا اسْتَكْفَيْناكَ، فَلا كافيَ لَنا سواكَ، وَلا رَبَّ لَنا غَيْرُكَ، نافذٌ فينا حُكْمُكَ، مُحيطٌ بنا علْمُكَ، عَدْلٌ فينا قَضاؤُكَ، اقْضِ لَنا الْخَيْرَ، وَاجْعَلْنا منْ أَهْلِ الْخَيْرِ. اَللّهُمَّ أَوْجبْ لَنا بجُودكَ عَظيمَ الأَجْرِ، وَكَريمَ الذُّخْرِ، وَدَوامَ الْيُسْرِ، وَاغْفرْ لَنا ذُنُوبَنا أَجْمَعينَ، وَلا تُهْلكْنا مَعَ الْهالكينَ، وَلا تَصْرِفْ عَنّا رَأفَتَكَ وَرَحْمَتَك، يا أَرْحَمَ الرّاحمينَ. اَللّهُمَّ اجْعَلْنا فى هذَا الْوَقْتِ

---

[٤٠٢] قَنَطَ يعني يأَس، أي لا تجعلنا من اليائسين من رحمتكَ وفضلكَ وجودِكَ ومغفرتِكَ.

[٤٠٣] فبعدَ الوقوف بعرفة، يأتي المبيت والبَقاء في مزدلفة حتى شروق شمس يوم العيد. ثم يوم العيد يقومُ الحاج برمي جمرة العقَبة الكُبرى، ثم ذَبْح الأُضحية، ثم التَّقصير. ويأتي بعد هذا كلّه المبيت في منى، ورمي جمرة العقَبة الصُّغرى والوُسطى والكُبرى، والسَّعي والطَّواف... بتفصيلٍ مذكور في كُتُب الفقه.

[٤٠٤] في لسانِ العرب: "وفي الحديث: وفي يدِه الميسمُ؛ هي الحديدة التي يُكْوَى بها، وأَصلُه مِوْسَمٌ، فقُلبت الواوُ ياءً لكسرة الميم. اللَّيث: الوَسْمُ أَثرُ كيّة، تقول موسومُ أي قد وُسِم بسمةٍ يُعرفُ بها، إمّا كيّةٌ، وإمّا قطعٌ في أُذنٍ قَرْمةٌ تكون علامةً له. أقول: هُنا اليدَين الممدودَتين له (ع) موسومةٌ بذلة الاعتراف لله تعالى.... وهو تعبير في غايةِ الرَّوعة والجمال.... كأنَّ ذُل العبودية محفورة في أعماقِ يديه.



مِمَّنْ سَأَلَكَ فَأَعْطَيْتَهُ، وَشَكَرَكَ فَزِدْتَهُ، وَتابَ إِلَيْكَ فَقَبِلْتَهُ، وَتَنَصَّلَ اِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِهِ كُلِّها فَغَفَرْتَها لَهُ[٤٠٥]، يا ذَالْجَلالِ وَالإِكْرامِ.

اَللّهُمَّ وَنَقِّنا وَسَدِّدْنا واقْبَلْ تَضَرُّعَنا، يا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ، وَيا أَرْحَمَ مَنِ اسْتُرْحِمَ، يا مَنْ لا يَخْفى عَلَيْهِ إِغْماضُ الْجُفُونِ، وَلا لَحْظُ الْعُيُونِ[٤٠٦]، وَلا مَا اسْتَقَرَّ فِى الْمَكْنُونِ، وَلا مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مُضْمَراتُ الْقُلُوبِ[٤٠٧]، أَلا كُلُّ ذلكَ قَدْ أَحْصاهُ عِلْمُكَ[٤٠٨]، وَوَسِعَهُ حِلْمُكَ، سُبْحانَكَ وَتَعالَيْتَ عَمّا يَقُولُ الظّالِمُونَ عُلُوّاً كَبيراً، تُسَبِّحُ لَكَ السَّماواتُ السَّبْعُ، وَالأَرَضُونَ وَمَنْ فيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَىءٍ اِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ[٤٠٩]، فَلَكَ الْحَمْدُ وَالمجْدُ[٤١٠]، وَعُلُوُّ الْجَدِّ[٤١١]، يا ذَالْجَلالِ وَالإِكْرامِ، وَالْفَضْلِ وَالإِنْعامِ، وَالأَيادِي الْجِسامِ[٤١٢]، وَأَنْتَ الْجَوادُ الْكَرِيمُ، الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ،

---

٤٠٥ في لسان العرب: "والتَّنصُّل شبه التبرُّؤ من جنايةٍ أو ذَنْب. وتنصَّلَ إليهِ من الجناية: خرَجَ وتبرَّأَ".

٤٠٦ يقولُ تعالى: "لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ" (سبأ، ٣).

٤٠٧ يقولُ تعالى: "أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" (هود، ٥). ويقولُ تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" (ق، ١٦).

٤٠٨ يقولُ تعالى: "وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ" (يس، ١٢).

٤٠٩ يقولُ تعالى: "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" (الإسراء، ٤٤).

٤١٠ المجد يعني الشَّرف الواسع والعظيم.

٤١١ الجد يعني العظَمة والغنى.

٤١٢ الأيادي الجِسام: النِّعم الكبيرة.



اَللَّهُمَّ أَوْسِعْ عَلَيَّ مِنْ رِزْقِكَ الْحَلالِ، وَعافِني في بَدَني وَديني، وَآمِنْ خَوْفي، وَاعْتِقْ رَقَبَتي مِنَ النّارِ، اَللَّهُمَّ لا تَمْكُرْ بي[413]، وَلا تَسْتَدْرِجْني[414]، وَلا تَخْدَعْني[415]، وَادْرَأْ عَنّي شَرَّ فَسَقَةِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ[416].

---

[413] المكْر هو التَّدبيرُ الخفِي. وقد هدَّد اللهُ سبحانَهُ أنَّهُ – وفق قوانين خاصَّة - سيُدبِّر بخفاء ويمكُر بالغافلين الذينَ يمكرون، وهذا يُعتَبَر من أقسى العقوبات التي لا يشعُر بها الإنسان إلا حينَما تُفاجئهُ الأحداث وتصعَقُهُ بما لم يكُن يتوقَّع. يقول تعالى: "وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ" (النمل، ٥٠-٥١). وقد حذَّرَ اللهُ تعالى من الأمْنِ من مكْرِه، فقال: "أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ" (الأعراف، ٩٩).

[414] درَجُ البِناء: مراتب بعضُها فوقَ بعض، واحدَتُهُ "درَجة"، واستَدْرَجَهُ يعني أدْناهُ من موضعٍ معيَّن على التَّدريج، فتدرَّج هو. يقولُ تعالى: "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ" (الأعراف، ١٨٢). قالُ بعضُهُم في تفسيرِه: معناهُ سنأْخُذُهم قليلاً قليلاً ولا نُباغِتُهم؛ وقيل: معناهُ سنأْخُذهم من حيثُ لا يحتَسِبون؛ وذلك أنَّ الله تعالى يفتَح عليهم منَ النَّعيم ما يغتبطونَ به، فيركُنونَ إليهِ ويأْنسونَ به، فلا يذكرونَ الموت، فيأْخُذَهُم على غِرَّتِهم أغْفَلَ ما كانوا.

[415] خدَع يعني أرادَ به مكروه من حيثُ لا يعلَم. واللهُ سبحانَهُ لا يريدُ بالعبدِ المكروه ابتداءً، وإنَّما يكونُ هذا انعكاساً لفعْله، فعندَما يخدَع العبدُ أولياءَ الله، تكون النَّتيجة أنْ يخدَعْهُ الله بخداعه لنفسه. يقولُ تعالى: "يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ" (البقرة، ٩). ويقول: "يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ" (النساء، ١٤٢).

[416] إدرأ يعني إدْفَع.



ثمّ رفَعَ رأسَهُ وبصرَهُ إلى السّماء وعيناهُ ماطرتان كأنّهما مُزادَتان[417] وقالَ بصوتٍ عالٍ :

يا أَسْمَعَ السّامِعينَ، يا أَبْصَرَ النّاظِرينَ، وَيا أَسْرَعَ الْحاسِبينَ، وَيا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد السّادَةِ الْمَيامينَ، وَأَسْأَلُكَ اَللّهُمَّ حاجَتِي التي إنْ أَعْطَيْتَنيها لَمْ يَضُرَّني ما مَنَعْتَني، وَإنْ مَنَعْتَنيها لَمْ يَنْفَعْني ما أَعْطَيْتَني، أَسْأَلُكَ فَكاكَ رَقَبَتِي مِنَ النّارِ[418]، لا إلهَ إلاّ أَنْتَ، وَحْدَكَ لا شَريكَ لَكَ، لَكَ الْمُلْكُ، وَلَكَ الْحَمْدُ، وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيء قَديرٌ، يا رَبُّ يا رَبُّ.

---

[417] مُزادَة: قِرْبَة الماء وغَرْفيَّة، والغَرْفيَّة رقيقة من جلودٍ يُؤتى بها من البحرين.

[418] هذه العبارة إنْ لم تكُن أهم عبارة في الدُّعاء، فهي من أهمِّ عبارات الدُّعاء، حيث يُلخِّص ويوجز (ع) سؤالَهُ من الله تعالى بأمرٍ أساسيٍّ واحد، إنْ أعطاهُ الله هذا الأمر فلَنْ يهتَمَّ بعدَ ذلك بما منعَهُ، وإنْ منعَهُ سبحانهُ هذا الأمر فلَنْ يهتَمَّ بعدَ ذلكَ بما أعطاهُ، وهذا الأمر هو "أنْ يفُكَّ رقبتَهُ من النّار". يقولُ تعالى: "كُلُّ نَفْسٍ ذَائقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ" (آل عمران، ١٨٥). وإنْ تأمَّلْت عبارتَهُ (ع) وجدْتَها في غايةِ الرَّوعة والجمال والاختصار والإيجاز. فإنْ فكَّ اللهُ رقبةَ إنسان من النَّار، فهل يضُرُّه بعد ذلك الفَقْر والفاقة والخوْف والجوع والبلاء في الدُّنيا، طالما أنَّ الدُّنيا بأسرِها زائلة وفانية، بنعيمِها وبلائها، همِّها وغمِّها؟ وإنْ لم يفُكَّ اللهُ رقبةَ إنسانٍ من النَّار، فما ينفَعهُ من نعيمٍ ومُلْكٍ عظيم طالما أنَّ ذلك كلَّه إلى زوال، والعذاب في الآخرة أشدُّ وأبقى؟ إذن – كما أشارَت الآية – الفوز الحقيقي هو في عِتْق الله رقبة عبده من النَّار، وهي الحاجة التي تستحِق أنْ يُلِحّ الإنسانُ على اللهِ لتحقيقِها.

وكانَ يُكرّر قوله "يا رَبُّ"، وشغَلَ من حضَر ممّن كانَ حولَهُ عن الدّعاء لأنفُسِهِم، وأقبلوا على الاستماع لهُ والتّأمين على دُعائِه، ثمَّ علَت أصواتُهُم بالبكاءِ معَهُ، وغرُبَت الشّمسُ وأفاضَ النّاسُ معه.

أقول: إلى هُنا تمّ دعاء الحسين (ع) في يومِ عرفة على ما أوردَه الكفعمي في كتاب "البلد الامين" وقد تبعَهُ المجلسي في كتاب "زاد المعاد"، ولكن زادَ السّيد ابن طاووس (رحمه الله) في "الإقبال" بعد "يا رَبِّ يا رَبِّ يا رَبّ" هذهِ الزّيادة[٤١٩]:

إلهي أَنَا الْفَقيرُ فى غناي، فَكَيْفَ لا أكُونُ فَقيراً فى فَقْري؟[٤٢٠] إلهي أَنَا الْجاهلُ فى علْمي، فَكَيْفَ لا أَكُونُ جَهُولاً فى جَهْلي؟[٤٢١] إلهي إنَّ اخْتلافَ تَدْبيرِكَ، وَسُرْعَةَ طَواءِ مَقاديرِكَ، مَنَعا عِبادَكَ الْعارِفينَ بِكَ عَنْ السُّكُونِ إلى عَطاء، وَالْيأْسِ مِنْكَ فى

---

[٤١٩] وهي زيادة منسوبة للإمام الحسين (ع)، والأرجح أنَّها لأحمد بن محمد بن عبد الكريم الشَّهير بابن عطاء الله السَّكندري المالكي، لاحظ مقدمة شرح هذا الدُّعاء.

[٤٢٠] يا إلهي، إذا كنتُ، وأنا في حالِ استقبال مِنَنِكَ وعَطائك، وإغنائك لي بالمال والمتاع ونشب الدُّنيا ونعيمها، فقيراً إليكَ لاستبقائها، وإدامة إنعامك عليَّ بها، فكيفَ لا أكونُ فقيراً إليكَ عندَ إدبارِها وزوالها؟ بل كيفَ لا أكونُ فقيراً إليكَ في أصلِ وجودي وأساسِهِ؟

[٤٢١] إلهي أنا جاهلٌ أثناء تمتُّعي بما تُطْلِعُني عليه من مكنون علمِك، إذ هو وديعة تستَلبها مني عندما تشاء، فكيفَ لا أكون جاهلاً، بل جهولاً حيال ما أخفيتَهُ عني من أسرارِك الكونيَّة وعلومِك الغيبيَّة؟



بَلاء.[٤٢٢] إلهي مِنّي ما يَليقُ بِلُؤْمي وَمِنْكَ ما يَليقُ بِكَرَمِكَ.[٤٢٣] إلهي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ لي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفي، أَفَتَمْنَعُني مِنْهُما بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفي؟[٤٢٤] إلهي إِنْ ظَهَرَتِ المحاسِنُ مِنّي فَبِفَضْلِكَ، وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ، وَإِنْ ظَهَرَتِ الْمَساوِئُ مِنّي فَبِعَدْلِكَ، وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ.[٤٢٥]

---

[٤٢٢] إلهي إنَّ سُرْعة حلول البلايا (من فقرٍ ومرض....إلخ) عقَب النِّعَم والآلاء (من غنى وصحَّة...إلخ)، ثم سُرْعة حلول النِّعَم والآلاء عقَب البلايا الشَّديدة، مستمرَّة بالتناوُب والتعاقُب، كالعجلَة التي تدورُ باستمرار، وهي لا تَهَبُ أحداً سكوناً أو هدوءاً في مقابلِ النِّعَم والآلاء أو اضطراباً أو قلقاً في مقابل النِّقَم والبلايا. لأنَّ العبد في حالة السَّراء عليه أنْ يخشى مفاجآت اللَّيل والأيام وأنْ لا يأمَن مكرَ الله، فليَجأْ إلى الله دائماً يدعوهُ أنْ يُديم عليه نعمةَ السَّراء، وأنْ لا يُبدل بها الضَّراء. وفي حالة الشِّدة والضرَّاء عليه أنْ يكون شديدَ التفاؤُل مزدهرَ الأمل، بأنَّ الله سيُبدل عُسْرَهُ يُسْراً، إنْ في أمورِ دينه أو شؤونِ دُنياه.

[٤٢٣] لو قورن فضْلُ الله تعالى ونعمَهُ لعباده، بقُرُباتهم التي يتقرَّبون بها إليه وبواجب شُكرِهم لهُ، لرأيتَ أنَّ أكثرَهُم عبادةً لهُ وأدومَهُم على شُكرِه مدينونَ لعظيمِ فضْلِ الله عليهم مُثْقَلونَ تحت أعباء مِنَنِه...وهل الطَّاعات التي يُؤدِّيها العبدُ لربِّه إلا بتوفيقِ الله لهُ إليها؟ إذن فشأنُ العبد التَّقصير في أداءِ حقوق ربِّه دائماً، وشأنُ الرَّب إمدادُهُ بالنِّعمِ المتنوعة التي لا تُحصى دائماً. واللُّؤم – لغة – نقيضُ الوَفاء. فمَنْ غابَتْ عنهُ سمة الوَفاء حلَّت في مكانِها سمة اللُّؤم. ومن شأنِ العبد إذ يجتاح مشاعره الحياء من اللهِ تعالى لما يرى من عظيمِ فضلِه ومِنَنِه عليه، مع ما يراهُ من شِدَّة إعراضِه عنهُ وتقصيره في جَنْبِه، أنْ يصِف نفسَهُ باللُّؤم إمعاناً في الاعتراف بتقصيرِه وسوء حاله.

[٤٢٤]وذلك لأنَّ الصِّفتين اللَّتين ذكرتَهُما يا إلهي في القرآن الكريم: "اللُّطف" و"الرأفة"، ليستا مختصَّتَين بحالةِ الضَّعف، فكيفَ لا تلطُف وترؤُف بي بعدَ تحقُّق ضَعْفي؟

[٤٢٥] لا شك أنَّ مصدر المحاسِن في حياةِ الإنسان، أيَّا كانت، هي الفطرة التي فطرَهُ الله عليها. وإنَّما فطرَ اللهُ الإنسانَ على نِعمةِ الإيمانِ بهِ والدَّينونة بنسبةِ العبودية له، وتتفرَّع عن ذلك محاسِن أخلاقية وسلوكية شتى. إذن فالمحاسِن الإيمانية والأخلاقية والسُّلوكية

إلهي كَيْفَ تَكِلُنِي وَقَدْ تَكَفَّلْتَ بِي؟ وَكَيْفَ أُضامُ وَأَنْتَ النّاصِرُ لِي؟ أَمْ كَيْفَ أَخيبُ وَأَنْتَ الْحَفِيُّ بِي؟[٤٢٦] ها أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِما هُوَ مَحالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ؟![٤٢٧] أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حالي وَهُوَ لا

كلها إنَّما تظهر في حياةِ الإنسان بفضلٍ من الله. أما المساوئ، فلا شك أنَّها مناقضة لمقتضيات الفطرة التي أنعمَ اللهُ بها على الإنسان. إذن فهي صادرةٌ من رعوناته، يقول تعالى: "مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا" (النساء، ٧٩). لكن من أين جاءت الرُّعونات؟ إنَّها آتية من مصدرٍ واحد، هو الاستكبار على الحق. وأساسُ الاستكبار في كيانِ المستكبر إنَّما هو ما قد أودَعَهُ اللهُ فيه من نعمةِ الشُّعور بالذَّات كي يحملهُ ذلك على رعايةِ ذاته والاهتمام بها ورد ما يتهدَّدها من أنواع الأذيَّة والأخطار، فهي نعمةٌ من أجلِّ نعمهِ تعالى. ولكن الشَّيطان عمَدَ إليه، فنفَخَ فيه هذه الصِّفة المفيدة في أصلها وحوَّلها في نفسهِ من حراسةِ الذَّات وحمايتها إلى الاستكبار على الآخرين، بل إلى الاستكبار بها على الله!!

[٤٢٦] يقولُ تعالى: "اللهُ وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" (البقرة، ٢٥٧)، ويقول: ""ألا تتَّخذوا من دوني وكيلاً" (الإسراء، ٣)، ويقول: "ومن يتوكَّل على الله فهو حسبُهُ" (الطلاق، ٣). إذن فالمؤمنُ بالله ليسَ تائهاً شارداً في جنَباتِ الأرض، وليسَ محروماً من الكلاءةِ والرِّعايةِ والحمايةِ من كلِّ ما يتهدَّدُهُ من السُّوء. فحاشاكَ – يا ربَّ – أن تكلْني إلى نفسي وقد كفيتَني رعايتِي التَّافهة لها بما ألزَمْتَ ذاتك به من رعايتِها وحمايتِها في كلِّ التقلُّبات والأحوال. وحاشاكَ أنْ تتخلَّى عني وتترُكَني للضَّيم، وأنا عبدُكَ المقرُّ بذُلِّ عبوديتي لك والمعتزُّ بشرفِ انتسابي بالعبوديةِ إليك. وحاشاك أنْ تُخيِّبني في رجاءٍ أطرُقُ به بابَك، وقد كنتَ ولا تزال إلهي الحفيَّ بي. فكيفَ وأنتَ تراني واقِفاً على بابِكَ مترامياً على أعتابِك، مُلتصِقاً بساحةِ إكرامِكَ وجودِك؟

[٤٢٧] إلهي ها أنا اتَّخذ من افتقاري إليك وسيلة لرحمتك بي، ولكنَّ المتوسَّل به إليك ينبغي أنْ يكون قريباً منك، وهيهات أنْ يكون فَقْري الذي أتوسَّلُ بِهِ إليك قريباً منكَ فضلاً عن



يَخْفى عَلَيْكَ؟[٤٢٨] أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ بِمَقالي وَهُوَ منكَ بَرَزٌ الَيْكَ؟[٤٢٩] أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمالي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ؟[٤٣٠] أَمْ كَيْفَ لا تُحْسِنُ أَحْوالي وَبِكَ قامَتْ؟[٤٣١]

أنْ يصِل إليك، فإنَّك أنتَ الغنيُّ بذاتِك عن كلِّ شيء وإنَّني الفقيرُ بذاتي إليكَ في كلِّ شيء.

[٤٢٨] أم تُرى أنَّ من الحقِّ أنْ أُباشِر التوجُّه إليك، دون وسيط، فأشكو إليكَ حالي؟ ولكن حالي لا تخفى عليك، وهل عرْضُها عليك بالرَّجاءِ والشَّكوى إلا ذهولٌ مني عن عِلْمِكَ بها وذهولٌ مني عن بالغِ رحمتِك بي؟

[٤٢٩] بل بأيِّ موجِب أُعبِّرُ لكَ عن حالي التي أُعاني منها، بالكلِمات التي أصوغُها وأخاطِبُكَ بها، وإنما تصدُر كلِماتي هذهِ من إلهامِكَ لي وعونِكَ بي، فهي منكَ عوْناً وتوفيقاً، وهي إليكَ تظهر نهايةً ومآباً؟

[٤٣٠] وأنَّى لآمالي المقبلة إليك أنْ تخيب، وهي قد وفدَتْ إلى ساحةِ فضلِكَ وإحسانِك، ووقفَتْ على بابِ جودِك وإكرامِك.

[٤٣١] أما أحوالي التي هي معقِد آمالي برحمتِك، فهل قامَ أمرُها إلا برعايتِكَ ولُطفك؟وهل نعَمْتُ بها إلا بتدبيرِكَ وقُدْرتِك؟ فكيفَ أرتاب في دوامِ رعايتِكَ لها واستمرار لُطفك بها؟ ثم إنَّها بك قامَت في تحقيقِ أسباب معايشي، وإليكَ مآلُها يوم تشهَد بين يديك على عجزي وبالغ ضَعْفي..وهذا هو مصدَرُ يقيني في استمرار لُطفك بحالي واستغنائك بواقع ذُلِّي عن مقالي.



إلهي ما أَلْطَفَكَ بي مَعَ عَظيمِ جَهْلي،[٤٣٢] وَما أَرْحَمَكَ بي مَعَ قَبيحِ فِعْلي.[٤٣٣] إلهي ما أَقْرَبَكَ مِنّي وَأَبْعَدَني عَنْكَ،[٤٣٤] وَما أَرْأَفَكَ بي فَمَا الَّذي يَحْجُبُني عَنْكَ؟[٤٣٥] إلهي عَلِمْتُ بِاخْتِلافِ الآثارِ، وَتَنقُّلاتِ الأَطْوارِ، أَنَّ مُرادَكَ مِنّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ في كُلِّ

---

[٤٣٢] كلمةُ "اللُّطف" تعني الدِّقة والخفاء، وتُوصَف الرُّوح والنَّسيم باللُّطف لخفائهما. أما الله فهو لطيفٌ في ذاته بمعنى أنَّهُ لا تُدْرِكهُ الأبصار، وهو عزَّ وجل لطيفٌ بعباده بمعنى أنَّهُ يمزج جلالَ قهرِهِ بجمالِ حِمايتِهِ لهم وكشْفِ الضُّر عنهم. والمعنى هنا: إلهي إنَّ دأْبي أنْ أرى المِحَن التي قد أُبتلى بها، ولا أرى المِنَح المخبوءة في طواياها، وما ذلك إلا لجهلي.

[٤٣٣] كلمةُ "الرَّحمة" تعني رقَّةٌ نفسيَّة تبعَث صاحبَها على التأثُّر لما يراهُ من مظاهر البؤس والفاقة لدى الآخرين، ومن ثمَّ تدفَعُهُ إلى رعايتِهم وتقديم يد العون لهم. فإذا أُطلِقَ اسمُ "الرَّحيم" على اللهِ عزَّ وجل، فهو يعني النتائج التي تبعَث عليها مشاعر الرِّقة، من أفانين الحماية والرِّعاية والعون لذوي الحاجة. والمعنى هنا: إلهي إنَّ دأْبي أنْ أتلقَّى مظاهر الرحمة منك يا رب، مع انشغالي بها عن شُكرِك.

[٤٣٤] "القُرْب" معناهُ معروف، ونقيضُهُ "البُعد"، وكلاهما يعني تنقُّلاً في المكان، وهو في ذاتهِ تعالى غير وارد، فهو منزَّهٌ عن المكان، كيفَ وهو خالقُ المكان. وإنَّما المراد بقُربِ الله من العبد علمُهُ بحالهِ وبسائر تقلُّباتهِ، ودوام إمداد الله له بمقوِّمات الحياة وأسباب العَيش والحَوْل والقوَّة لحظةً فلحظة. أما المراد ببُعْد العبد عن الله، فهو ذهولُهُ عن كونهِ يحيا ويعيش في قبضةِ الله وتحتَ سُلْطانه وحُكْمِهِ، واحتجابُهُ عن سُلطان الله ورقابتهِ لهُ بشهواتهِ وأهوائه ودُنياه.

[٤٣٥] إنَّه لسؤالٌ محيِّر: لماذا رغم شدَّة قُرْب الله منَّا نجد أنفُسَنا محجوبون عنه؟ ورأفة الله بالعبدِ من أجلِّ مظاهر قُرْب الله منه، فيا عجباً لحالِ من يعلَم أنَّ الله قريبٌ منهُ بالرَّأفةِ الشَّديدة بهِ في كلِّ الأحوال، وفي سائرِ التقلُّبات، ويظل هو مع ذلك محجوباً عنهُ، مشغولاً بأوهامهِ، مخدوعاً بكينونتِهِ واستقلالية شأنه.

شَيء، حَتّى لا أَجْهَلَكَ فى شَيء. [٤٣٦] إلهي كُلَّما أَخْرَسَني لُؤْمي أَنْطَقَني كَرَمُكَ، [٤٣٧] وَكُلَّما آيَسَتْني أَوْصافي أَطْمَعَتْني مِنَنُكَ. [٤٣٨] إلهي مَنْ كانَتْ مَحاسِنُهُ مَساوِئ، فَكَيْفَ لا تَكُونُ مُساويهِ مَساوِئ؟ [٤٣٩] وَمَنْ كانَتْ حَقائِقُهُ دَعاوِيَ،

---

[٤٣٦] إلهي لقد علِمْتُ أنَّ الاختلافات الطارئة على أحوالِ الدُّنيا من صيفٍ وشتاء وليل ونهار ونور وظلام وبرودة وحر..وأنَّ التطوُّرات الطارئة على أحوالِ عبادِك من شدَّةٍ ورخاء، وعافيةٍ وبلاء، ويُسْرٍ وعُسْر، كلُّ ذلك مظاهر لصفاتك الكثيرة وكمالاتكَ المتنوِّعة، وأنَّك تَدْعوني من خلال التأمُّل فيها إلى أنْ أتَّخذ من كلِّ ذلك مرآةً أستبينُ فيها سائر صفاتك وأنواع تجلّياتك، وأنْ أرى سُلطانَ حُكْمِك وباهر حِكْمَتك في كلِّ شيء، حتى لا أجهلَكَ في شيء.

[٤٣٧] "اللُّؤم" مقابلةُ المعروف بنقيضه، ومقابلةُ الإحسان بالإساءة. والشَّأن في الإنسان البصير بحالِه أنْ يُذيبَهُ حياؤُهُ من تواردِ نِعَمِ الله عليه، مع إعراضِه عن شُكْرِه وتقصيرِه في أداءِ حقوق الرُّبوبية عليه. ومقتضى هذا الشُّعور الذي لابدَّ أنْ يُساورَهُ، أنْ يُصْمِتَهُ الحياء عن التوجُّه إلى الله بالمسألةِ والدُّعاء. ولكن عِلْمُهُ بواسعِ كرَم الله، يُذْهِلهُ عن لُؤمِه وسوءِ حالِه، ويُغريه بالتوجُّه إليه وعَرْض حاجاته عليه.

[٤٣٨] مقتضى الصِّفات التي يعلَمُها الإنسانُ من نفسه، من سمةِ العجز التي لا تُفارقهُ، والغفلة التي هي دأبُهُ، والأنانية التي تُنسيهِ عُيوبَهُ وتُغريه بحُبِّ المدْح، أنْ تبعَث في نفسِه اليأسَ من صَلاحِ حالِه ومن قبول الله له. ولكن تَذَكُّرَهُ لِمَنِ الله التي تتوالى عليه دونَ انقطاع على الرَّغمِ من هذه الصِّفات التي يُعاني منها، يُطمِعهُ في المزيد من مِنَنِه وإحسانِه.

[٤٣٩] المراد بـــ "المحاسِن" ما قد يُتقرَّب به إلى الله من العبادات والقُرُبات، كالصلاةِ والصَّوم والأذكار والصَّدقات ونحوِها. ومعنى كونِها مساوئ في نظرِه، أنَّها ليست خالية عن الشَّوائب، وليست من الكمال في طريقةِ أدائها بحيث تتناسب مع مقامِ الرُّبوبية. فهو يرى أنَّ صلاتَهُ – رغمَ أنَّها في الظَّاهرِ محاسن مُطابقة لأمرِ الله لكنَّها في الباطن - مشوبة بالغفلةِ معيبة بالنُّقصان، وأنَّ سائر قُرُباته الأخرى مُثْقلَة بأعباءٍ من حظوظِ النَّفس.فإذا كانَ مآل المحاسِن بعد تمحيصِها ودِقَّة النَّظر فيها، أنْ تتحوَّل إلى مساوئ، فإلامَ سيؤول إذن حال المساوئ التي هي مساوئ في كلٍّ من الظاهرِ والباطنِ معاً؟



فَكَيْفَ لا تَكُونُ دَعاواهُ دَعاوِيَ؟[٤٤٠] إلهي حُكْمُكَ النّافِذُ، وَمَشِيَّتُكَ الْقاهِرَةُ لَمْ يَتْرُكا لِذي مَقالٍ مَقالاً، وَلا لِذي حالٍ حالاً.[٤٤١]

إلهي كَمْ مِنْ طاعَة بَنَيْتُها، وَحالَة شَيَّدْتُها، هَدَمَ اعْتِمادي عَلَيْها عَدْلُكَ، بَلْ أَقالَني مِنْها فَضْلُكَ.[٤٤٢] إلهي إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنّي وَإِنْ لَمْ تَدُمِ الطّاعَةُ مِنّي فِعْلاً جَزْماً فَقَدْ

---

[٤٤٠] مرادُهُ بـــ "الحقائق" ما قد يُقرِّرُهُ في حقِّ نفسه، من كونه محبًّا لله، مُطيعاً له، خائفاً منه، مُراقِباً ذاكراً له...ونحو ذلك. والمعنى: إنِّي لأنظرُ فيما أدَّعيه في حقِّ نفسي من الأمور أو الصِّفات التي أَعُدُّها حقائق ثابتة، ولكن سرعان ما يتبيَّن لي أنّها ليست إلا دعاوى يعوزُها التَّحقيق. إنِّني أدَّعي محبة الله وأراها في نفسي حقيقة، وأدَّعي طاعة الله في أوامره ونواهيه، ولكنِّي إذا أتلمَّس الدَّلائل والبراهين، تخُونُني الأدِلَّة وأجِدُني أمام دعاوى عريضة لا يوجَد ما يدْعَمُها.

[٤٤١] رُبَّ إنسانٍ يتَّخذ لنفسه القرار الذي يريد، ويُتبِعهُ بالتَّنفيذ والعمَل اللازمين، وقبلَ أنْ يُعلِن بينَ الناس والأقران وصولَهُ إلى ثمرة قراره ونتيجة سعيه وعمله، يَسْبقهُ حُكْمُ الله وقضاؤهُ، فيُلغي قرارَهُ الذي اتَّخذَهُ، ويُبْطِل ثمرةَ جُهده وسعيه، ويتجلَّى من ورائه ما قد أرادَهُ اللهُ في سابقِ غيبه. ورُبَّ إنسانٍ تعتريه أحوالٌ تجذبُهُ إلى الله رقابةً وتعظيماً ومهابةً أو عِلْماً وكشْفاً، فلا يشُكُّ في أنَّهُ من عباد الله الصَّالحين، فما هو إلا أنْ يَسبقهُ الكتاب وتتغلَّب عليه مشيئةُ الله القاهرة، وإذا هو شاردٌ في التائهين. إذن، فمن هذا الذي يستطيع أنْ يستوثِق من نتائج جهده وأنْ يتأكَّد من ثمرات سعيه، ومن هذا الذي يستطيع أنْ يجزُم بصلاحِ حاله مع الله وأنْ يطمئن إلى حُسْنِ خاتمته معتمداً على الأحوال التي يُكرمُهُ الله بها؟ لذا وردَ عن الإمام علي (ع): "عرَفْتُ اللهَ بفَسْخِ العزائم ونَقْضِ الهِمَم".

[٤٤٢] لو تأمَّلَ العبدُ في قيمة الطَّاعات التي يُؤدِّيها، وفيما يُقابلُها من نِعَمِ الله الوافدة إليه، وفي توفيقِ الله لهُ في أدائها، لعَلِمَ أنَّ ميزانَ العدالة الإلهية، يُحيلُ طاعاته كلَّها، مهما كثُرَت، إلى هباء، في جنبِ ما غمَرَهُ اللهُ به من نِعَمه. وعندئذٍ لابدَّ أنْ تضؤُل قيمةُ طاعاته



دامَتْ مَحَبَّةً وَعَزْماً[٤٤٣]، إِلهي كَيْفَ أَعْزِمُ وَأَنْتَ الْقاهِرُ؟ وَكَيْفَ لا أَعْزِمُ وَأَنْتَ الآمِرُ؟[٤٤٤]

إِلهي تَرَدُّدي فِي الآثارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزارِ، فَاجْمَعْني عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُني إِلَيْكَ،[٤٤٥] كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ

كلّها أمام نظرِه، ولابدَّ أنْ يستبدلِ بالاعتمادِ عليها الاعتماد على كرمِ الله وفضله. فالمعنى إذن: إلهي صفةُ العَدْل - التي تتَّصِفُ بها - لم تترُك لي طاعةً أو حالةً يُمكنُني الاتّكاء والاعتماد عليها، لكنّ اتّصافُكَ بالفضلِ هو أمَلي وكلّ ما بقي لي.

[٤٤٣] فأنا عاجزٌ يا إلهي عن القيامِ بالطّاعاتِ على الوجهِ المطلوب، سواء من حيث اتقاها أو من حيث المداومة عليها، لكني محبٌّ لأنْ أقوى على إتقانِها، عازمٌ – لو أمكنَتْني الفُرصة – على دوامِ أدائها.

[٤٤٤] ينبغي أنْ يكون للعبد حالتان لا تنفكّان عنهُ، إحداهُما الاستسلام لقهرِ الله وسلطانه، والأخرى الانقياد لأمرِه وتكاليفه. أما الحالة الأولى فتنبثق من علْمِ العبد بمملوكيته المطلقة للهِ تعالى، وبأنْ لا حولَ ولا قوةَ لهُ إلا به. وأما الحالة الثانية فتنبثق من الخطابِ التكليفي الذي خاطبَهُ اللهُ به، عن طريقِ رُسُلِه وأنبيائه وأئمة الدِّين، آمراً وناهياً. ولا تتكامل عبودية الإنسان لله إلا بهيمنةِ كلٌّ من هاتينِ الحالتين على مشاعرِه ومن اصطباغه التَّام بهما. وسبيلُ الخروج من حيرةِ السُّؤال: كيف أعزم وأنتَ القاهر؟ وكيفَ لا أعزم وأنتَ الآمر؟ هو العزمُ، انقياداً لأمرِ الله، مع الاستعانة به واستمداد التوفيق منه.

[٤٤٥] المراد بـــ "الآثار"، أثار صُنْعِ الله، والمراد بـــ "بُعْدِ المزار" طول الطَّريق الموصل إلى الله. والمعنى: إلهي إنَّ توجُّهي إلى آثارِ صُنْعك للاستدلالِ بها عليك، يجعَل منها حجاباً بيني وبينَك يُتطلَّب اختراقُهُ، وإنَّهُ لحجابٌ من الطَّريقِ طويل، فما أكثر ما يخوض الباحث عن المطلوب في الطُّرُق الموصلةِ إليه، فتلتَوي عليه السُّبُل وتتعرَّج أمامَهُ المسالك، ولرُبَّما قضى الباحِث نحبَهُ قبلَ أنْ ينتهي من مخاضَتِها إليه، وإنِّي لأخشى يا مولاي من التواءِ الطَّريق

الظُّهورِ ما لَيْسَ لَكَ، حَتّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ، مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إلى دَليلٍ يَدُلُّ عَليْكَ، وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إلَيْكَ،[٤٤٦] عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْد لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً.[٤٤٧]

الهادي إليك، فأكون كالظمآن يرى التماعَ الماء أمامَهُ يبرُق على البُعد، وهو محجوزٌ عنهُ بالسَّبيلِ الطَّويلة الموصلة إليه. فهلَّا جمعتَني عليكَ يا ربي، دونَ حاجة إلى اختراقِ سُبُل الآثار إليك؟ هلَّا كانت سبيلي للوصول إليك، وقفةُ خدْمة بين يديك تجذبُني بها إليك؟

[٤٤٦] إلهي إذا كانت كل آثارك ومخلوقاتك مفتقرةٌ إليكَ في وجودِها فكيف يُستدَلُّ بها عليك؟ وإذا كانت هذهِ الآثار والمخلوقات هي الظَّاهر، وأنتَ هو الباطن، فهل يمكن القَبُول بأنْ تكون لها صفة الظُّهور في حين أنَّك تفتقد أنتَ هذه الصِّفة (لأنَّك باطن) حتى تكون هذهِ الآثار والمخلوقات هي المظهِر لك؟ أبداً فأنتَ كما وصَفْتَ نفسَك "هو الأوَّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطِنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليم" (الحديد، ٣)، فكما أنَّك باطن أنتَ ظاهرٌ أيضاً. أنتَ - يا ربِّ – ظاهِرٌ وحاضِر، وإلا، متى غِبْتَ حتى تحتاجَ إلى دليلٍ يدُلُّ عليك من آثارِكَ ومخلوقاتِك؟ أنت – يا ربِّ – ظاهِرٌ قريب، وإلا، متى بعُدْتَ حتى تكون الآثار والمخلوقات هي التي تُوصِل إليك؟ إذا قُلنا – يا ربِّ – إنَّك تحتاج إلى آثارِكَ ومخلوقاتِكَ لتدُلَّ عليك، وأنَّك تحتاجُ إليها لكي تُوصِل إليك، فهذا يعني أنَّا لم نفهَم بعد أنَّك ظاهِرٌ حاضِرٌ قريب، بل ننسِب إليكَ الحاجة والنَّقص...سبحانَكَ اللهمَّ فأنتَ الغنيُّ والمنزَّه عن كلِّ نقص.

[٤٤٧] هاتان الجملتان خبريَّتان على الأرجَح، فهما إعلامٌ وبيان، وليستا – كما قد يُظَن – دعاءٌ بالعَمى وبخسرانِ الصَّفقة. والمراد بـ "العين" عينُ القلب، التي يُعبَّر عنها بـ "البصيرة". والمعنى أنَّ العبد الذي لا يُلاحظ رقابة الله لهُ في سائرِ تقلُّباته وأحواله، يُعاني من عمى القلب وانطماس البصيرة. وأما قولُهُ "وخسرَت صفقةُ عبدٍ..."، فمعناهُ أنَّ الإنسان مهما كانَ بصيراً بشؤونِ دُنياه وسُبُل الاستفادة والرِّبح من تحركاتِه وأعمالِه التجارية، فإنَّ مساعيه آيلةٌ إلى الخسران إنْ لم يكُن لهُ نصيبٌ من محبةِ الله لهُ، ومن ثمَّ لم يكُن لهُ نصيبٌ من محبَّته لله عزَّ وجل.



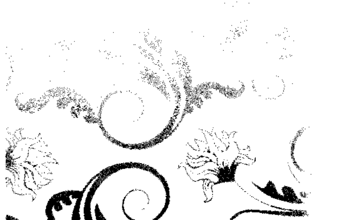
إلهي أَمَرْتَ بالرُّجُوعِ إِلَى الآثارِ فَارْجِعْني إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأَنْوارِ، وَهِدايَةِ الاسْتِبصارِ، حَتّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْها، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاعْتِمادِ عَلَيْها، "إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ"[448].[449]

إلهي هذا ذُلّي ظاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَهذا حالي لا يَخْفى عَلَيْكَ، مِنْكَ أَطْلُبُ الْوُصُولَ إِلَيْكَ، وَبِكَ اَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ، فَاهْدِني بِنُورِكَ إِلَيْكَ، وَأَقِمْني بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ.[450] إلهي عَلِّمْني مِنْ عِلْمِكَ المخْزُونِ، وَصُنّي بِسِتْرِكَ الْمَصُونِ.[451] إلهي

[448] سورة البقرة، ٢٠.

[449] إلهي، ها هي آثارُ إبداعِك وجميلُ صُنْعك قد أوصلَتْني إليك وعرَّفَتْني عليك، ولكنَّك تأمُرُني، من خلال ما أتلوهُ من بيانِكَ المنزَل على حبيبِك المرسَل (ص)، بأنْ أرجِع إلى الآثار ذاتِها التي هدَتْني إليك وعرَّفتني عليك، لأُسَخِّرَها أدوات في النُّهوضِ بالوظيفةِ التي كلَّفتَني بها وخلَقْتَني من أجلِها، من عمارةِ الأرض والقيام بمسؤوليةِ الخلافة عن الله وإقامة موازين العَدْل. وها أنا عائدٌ إليها، ولكن أسألُكَ أنْ تَقيني شرَّ الافتتان بها والرُّكون إليها والاحتجاب بها عن ذاتِك، بعدَ أنْ أكرَمْتَني بنعيمِ قُربِك ولذَّةِ معرفتِك. فأقدِرني اللهمَّ على أنْ أرجِع إليها وأنا أحمِلُ في يُمناي قبَساً من نورِ معرفتِك وزاداً من الهدايةِ التي متَّعتَني بها والاستبصار الذي أغنَيْتَني به، كي أعود منها إليك مُمَتَّعاً بشهودِكَ أنت، غيرُ مُنشغِلٍ عنك بزينتِها وزُخْرُفِها، كما وصَلْتُ إليكَ منها يومَ اهتدَيْت بها إليك وقد صُنْتَ قلبي من آثارِ التوجُّهِ إليها والتعلُّق بها، ورفعت همَّتي عن التسبُّب بها والاعتمادِ عليها.

[450] إلهي، إنَّني لا أملكُ بينَ يدَي دُعائي إلا ذُلِّي وفاقتي، وها أنتَ تراني متحقِّقاً بهما. فأسأَلُكَ اللهمَّ بافتقاري هذا أنْ تُوصِلني بك إليك، أي أسأَلُكَ اللهمَّ أنْ لا تجعَل من الأغيار أيَّا كانت وسيطاً بيني وبينك، أتعرَّفُ به عليك وأستدلُّ به إليك، بل اجعَل من لُطفِكَ بي



حَقِّقْني بِحَقائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ، وَاسْلُكْ بي مَسْلَكَ أَهْلِ الْجَذْبِ.[٤٥٢] إِلهي أَغْنِني بِتَدْبيرِكَ لي عَنْ تَدْبيري، وَبِاخْتِيارِكَ عَنِ اخْتِياري، وَأَوْقِفْني عَلى مَراكِزِ اضْطِراري.[٤٥٣] إِلهي أَخْرِجْني مِنْ ذُلِّ نَفْسي، وَطَهِّرْني مِنْ شَكّي وَشِرْكي قَبْلَ

وجَذْبَكَ لي سبباً للوُصولِ إليك، واجعَل لي من نورِكَ الذي ملأَ أركانَ عرشِك مصباحاً هادياً يدُلُّني عليك. فإذا وصلْتُ إليكَ بألطافِ جَذْبِكَ لي، فأسأَلُكَ اللهمَّ أنْ تُقيمَني حينئذٍ في محرابِ العبوديةِ الخالصةِ عن الشَّوائب، لأُمارس عبوديَّتي لكَ وحدَكَ بعيداً عن الوسائطِ والآثار.

[٤٥١] إلهي أكرمني بعلْمِكَ المستورِ إلا عن أنبيائكَ وأوليائك، وهو العِلْمُ اللَّدُنِّي المشار إليهِ بقوله تعالى: "وعلَّمْناهُ من لدُنَّا عِلماً" (الكهف، ٦٥)، دون وساطة معلِّم أو كتاب، وهذا العِلْم طريقُهُ التَّقوى، وثمرتُهُ الشُّهود. واحفظني — يا ربِّ — من شرِّ الشَّيطان، ومن شرِّ نفسي الأمارة بالسُّوء، ومن شرِّ خلقِك كلِّهم، بسرِّ اسمِك الذي استأثرتَ به في عِلْمِ الغيبِ عندَك، فلم تُطلِع عليه إلا المقرَّبينَ من عبادِك، أو لم تُطلِع عليه أحداً منهم.

[٤٥٢] "أهلُ القُرْب" هم الذينَ غابَت عن أبصارِهم الوسائط والأسباب، واصطبَغَت مشاعِرُهُم — بعد أنْ أيقَنَت قلوبهم — بحقائقِ وحدانيَّة الله، فأورَثَهُم ذلكَ فناء عن سائرِ الأغيار، وتفويضاً تاماً إلى من بيده وحدَةُ التَّدبير، وتوكُّلاً دائماً على من بيدِهِ كلّ شيء. و"أهلُ الجَذْب" هم الذينَ اجتباهُم اللهُ إليه، دون أنْ يسلُكوا إليهِ سبيلَ المجاهدَة وأخذ النَّفْس بأسبابِ التربية. والمعنى: اللهمَّ حرِّرني من أسرِ النَّظَر إلى الوسائط والأسباب، ومتِّعني بما متَّعْتَ به أهل القُرْب إليك من الاستغراقِ في بحرِ توحيدِك. واسلُك اللهمَّ بي مسالكَ أهل الجذْب، فلا تحوجني إلى قطعِ المسافات، ومجاهدةِ النَّفس للتخلُّص من آفاتِها، والبحث عن السُّبلِ الناجعة للتخلُّص من رعوناتِها (فالعمرُ قصير، ومجاهدةُ النَّفس تحتاجُ إلى دأبٍ وطريقٍ طويل، فاطوِ عني هذه المراحل بجذْبٍ من عنايتك بي إليك).

[٤٥٣] لما كان أكثَر الناس ينسبونَ إلى أنفُسِهم التَّدبير من حيثُ يمارسونَ الأسباب، أسأَلُكَ اللهمَّ أنْ لا تجعَلْني منهم، وأنْ تُبَصِّرني دائماً بعَجْزي عن التَّدبيرِ لنَفْسي، وأنْ تضعني أمام شهودِ التَّدبير الإلهي الدائم لي، فتدْبيرُكَ لي قائمٌ ومستمر دعوتُ بذلك أم لم أدْعُ. وأسأَلُكَ



حُلُولِ رَمْسي[٤٥٤]، بِكَ أَنْتصِرُ فَانْصُرْني،[٤٥٥] وَعَلَيْكَ أَتوَكَّلُ فَلا تَكِلْني،[٤٥٦] وَإِيّاكَ أَسْأَلُ فَلا تُخَيِّبْني،[٤٥٧] وَفي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلا تَحْرِمْني،[٤٥٨] وَبِجَنابِكَ أَنْتسِبُ فَلا تُبْعِدْني،[٤٥٩] وَبِبابِكَ أَقِفُ فَلا تَطْرُدْني.[٤٦٠]

اللهمَّ أنْ تُغنيني بما تختارَهُ أنتَ لي، عمَّا أختارُهُ أنا لنَفْسي، حتى تكون رغائبي وأهوائي تابعة لما تختارَهُ لي، كي لا آسى على قصدٍ فاتَني، ولا أحزن على رغبةٍ لم تتحقَّق.

وأما مراكز الاضطرار، فيبدو أنَّ مرادَهُ بها، ما قد يصدُر منُه دونَ قصدٍ ولا اختيار، مما لا قِبَلَ لهُ بردِّه أو جلْبِه، فهو يسأل الله أنْ يُنبِّهه إلى عيوبهِ التي زجَّتهُ الضرورة فيها، ليرى عِظَمَ لُطف الله في سَتْرِها عليه، وبالِغِ رحمته في تجاوزه عنها.

٤٥٤ أسأَلُكَ يا ربِّ أنْ تُحرِّرني من ذُلِّ نفسي الأمارة بالسُّوء، فإنَّ النَّفسَ أذَل ما تكون، إذ تستجِرُّ صاحبَها إلى ما قد حرَّمَهُ اللهُ عزَّ وجل. وإلا تصرف عني كيدَ الشَّيطان أصْبُ إلى المعاصي وأكُنْ منَ الجاهلين. وأسألُكَ يا ربِّ أنْ تُطَهِّرني من شُكوكي عندما أُصبح جزوعاً في الملّمات والمصائب بسببِ قلَّة ثقتي بلُطفك ورحمتِك وحِكمتك، حتى لا يَنْتابَني شكٌّ في أنَّ كلّ ما يفد إليَّ من الله، نعمة وخير، وإنْ بدا في الظَّاهِر أنَّهُ على خِلافِ ذلك. وأسأَلُكَ يا ربِّ أنْ تُطهِّرني من أيِّ شكٍّ خفيٍ قد أتورَّط به – من مراقبة الأغيار والاهتمام بشأنِهم والاعتماد عليهم والتأثُّر بالأسبابِ التي تبرز كوسائط بيني ومبتغياتي فتُنْسيني أو تحجُبُني عن فاعليةِ الله - قبلَ حلول نزولي في قبري.

٤٥٥ لا أطلُب النَّصرَ إلا منك، لأنِّي أعلَم أنَّ الأسبابَ كلَّها جنودٌ بيدِك، خاضعةٌ لسُلطانك وحُكْمِك.

٤٥٦ والاتكال على اللهِ تعلُّق أمَلُ العبد فيما يفعَل ويذَر باللهِ وحدَهُ، بأن يتَّخذ الأسباب التي أقامَها اللهُ في الكون، متَّجهاً بها إلى المقاصد التي يبتغيها، ولكنَّهُ لا يرى لها أيَّ فاعلية بمعزلٍ عن الله، ومن ثمَّ لا يتعلَّق أملُهُ إلا باللهِ عزَّ وجل. أما قولُهُ "فلا تكلني" فمعناهُ لا تترُكْني أرى لغيرِكَ أيَّ تأثير أو وجود ذاتي – بمعزل عنك - في حياتي وتصرُّفاتي، فإنَّكَ إنْ تركتَني لهذهِ الرُّؤية، وكلْتَني إلى نفسِي، وإنْ وكلْتَني إليها هلَكْت.



إلهي تَقَدَّسَ رِضاكَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنّي؟[٤٦١] إلهي أَنْتَ الْغنيُّ بِذاتِكَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ مِنْكَ، فَكَيْفَ لا تَكُونُ غَنِيّاً عَنّي؟[٤٦٢] إلهي إِنَّ الْقَضاءَ وَالْقَدَرَ يُمَنّيني،[٤٦٣] وَإِنَّ الْهَوى بِوَثائِقِ الشَّهْوَةِ أَسَرَني،[٤٦٤] فَكُنْ أَنْتَ

---

[٤٥٧] لا أتوَجَّه بسؤال أمرٍ من أمورِ دُنيايَ وآخرتي، إلا إليك، ذلك لأنِّي قد علِمْتُ بأنَّكَ أنتَ الضَّارُّ والنَّافِع وأنتَ المعطي والمانِع، فكيف أتحوَّل بمسألتي عن بابِك، وقد علِمْتُ أنْ ليسَ في الكون كلِّه إلا بابك، ولن يقوى على تحقيقِ مُرادي وقضاءِ حاجاتي إلا جنابُك.

[٤٥٨] وإنِّي لأسأَلُكَ – يا إلهي - التفضُّل عليَّ بما أنتَ أهلٌ له من الصَّفحِ والتَّجاوز، وإنْ كنتُ أعلَم، من تقصيري وسوءِ حالي، أنَّني لسْتُ أهلاً له، فلا تحرِمْني يا مولاي من فضلِك الذي أطمع فيه.

[٤٥٩] أي أنتسب إليكَ بذُلِّ عبوديَّتي لك، فتقبَّل مني ذُلّ انتسابي هذا إليك باللُّطفِ بي، ولا تُبْعدني عنك بتركي لأهواءِ نفسي ولكيدِ شيطاني.

[٤٦٠] فها أنا أقِف ببابِكَ مسكيناً فقيراً عاجزاً، والعبدُ لا يقِف على بابِ سيِّدِهِ معلِناً عن بؤسِه ومسكنتِه، إلا ليستَعْطِفه في قضاءِ حاجاته وتحقيقِ سُؤْلِه.

[٤٦١] فما أُوَفَّق إليه من طاعات وقُرُبات، تابعٌ لرِضاكَ يا رب وأثرٌ من آثارك، وليس رضاكَ عني تابعاً لطاعاتي وقُرُباتي. فإنْ وُفِّقتُ للطَّاعات، فلكَ المنَّة بذلك عليّ.

[٤٦٢] فأنتَ يا ربِّ الغنيُّ عن عوارضِ النَّفع أيّا كانَ مصدَرُهُ، إنَّك غنيٌّ عن أنْ تحتاج إلى منفعةٍ تكتسبُها من ذاتك كما يحتاج أحدُنا إلى أنْ يبذُل جُهدَهُ لاستخراجِ ذُخْرٍ أو لتصنيعِ شيء. وعندما تأمُر – يا ربِّ - عبادَكَ وتنهاهُم، ليس في استجابتِهم لأمرِكَ أو نهيك، ما قد يعودُ إليكَ بشيءٍ من النَّفع أو ما قد يرُدُّهُ عنكَ من الضَّرَر، تعالى اللهُ وتنزَّه عن ذلك، بل النَّفعُ في ذلكَ كلِّهِ عائدٌ إلى عبادِهِ إنْ هُم استجابوا لأمرِهِ، والضَّرَر لاحِقٌ بهم إنْ أعرضوا عن أمرِه.

[٤٦٣] في اللُّغة "مَنَى له الماني يعني قدَّر المقدِّر"، فكأنَّهُ هنا يقول: يا ربِّ إنَّ القضاء والقدر، يُقدِّران ويُحدِّدان ويُقيِّدان مساري وخياراتي في الحياة. ومعنى القضاء الإلهي بشأنِ حوادث



النَّصيرَ لي، حَتّى تَنْصُرَني وَتُبَصِّرَني،[٤٦٥] وَاَغْنِني بِفَضْلِكَ حَتّى أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلَبي.[٤٦٦]

أَنْتَ الَّذي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ في قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدوكَ،[٤٦٧] وَأَنْتَ الَّذي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبّائِكَ حَتّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَأوا إِلى

العالَم هو أنَّ هذه الحوادث توفَّرَت على الحتميَّةِ والقطعيَّةِ من قِبَلِ ذاتِ الحق، فحُكْمُ الحقّ القطعي بشأنِها هو كذا وكذا. ومعنى التقدير الإلهي هو أنَّ الأشياء اكتسبَت مقياسَها من قِبَلِ الحق. وحيثُ أنَّ اللهَ تعالى فاعِلٌ بالعِلْمِ والمشيئةِ والإرادة، فيرجع القضاء والقدَر إلى علمِهِ وإرادتِهِ ومشيئتِهِ. والقضاءُ حتميٌّ ولا يتغيَّر، في حين أنَّ القدَر غيرُ حتمي وقابلٌ للتغيير؛ فنِسبة وجود الأشياء إلى عِلَلِها التَّامة ضروريَّة وحتْميَّة، لكن نسبة وجودها إلى ذاتِها وعِللِها الناقصة غير ضروريَّة، أي ممكنة.

[٤٦٤] "الهوى" هو ميلُ النَّفْس إلى شهواتِها الغريزية، والمعنى: يا ربِّ وقوعي في أسرِ شهواتي النَّفسي وارتباطي بوثائِق الشهوات أسرَتْني. ويُشبه هذا قولُ أمير المؤمنين في دعاء كميل: "وقعَدَت بي أغلالي".

[٤٦٥] أي فخلِّصني من قيودِ شهواتي التي أسرَتْني، بتوفيقٍ مباشرٍ منك، ذلكَ لأنِّي قد تبرَّأتُ من حولي وقوتي واستَسْلَمْتُ لحولِكَ وقوَّتك...وبذلك يتحقَّق لي النَّصر على نفسي، وتتحقّق لي القُدرة التي بها يستجيب الناس لنُصْحي.

[٤٦٦] وأسأُلكَ أنْ تتكفَّل أنتَ بسدِّ حاجاتي وتحقيق ما أنا مفتقرٌ إليه، دون أي موجب لأنْ أعرضها لك وأسأُلكَ تحقيقَها.

[٤٦٧] إلهي، كم أنتَ متفضِّل على أوليائك، إذْ هدَيتَهُم بك إليك، وعرَّفْتَهُم على ذاتِك بنورٍ منكَ قذَفْتَهُ في قلوبِهم، فلم يحتاجوا في سبيلِ الوصول إليك، وصول معرفة وشهود، إلى مقدِّمات منطقية ولا إلى دلائلَ كونية، وتلك مزِيَّة يختصُّ بها من يشاءُ من عباده.



غَيْرِكَ،[٤٦٨] أَنْتَ الْمُونِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ الْعَوالِمُ، وَأَنْتَ الَّذي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمُ الْمَعالِمُ.[٤٦٩] ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟[٤٧٠] وَمَا الَّذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟[٤٧١] لَقَدْ خابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغى عَنْكَ مُتَحَوِّلاً.[٤٧٢] كَيْفَ يُرْجى سِواكَ وَأَنْتَ ما قَطَعْتَ الإِحْسانَ؟[٤٧٣] وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ ما بَدَّلْتَ عادَةَ الإِمْتِنانِ؟[٤٧٤]

---

[٤٦٨] وأنتَ – يا ربِّ – الذي غَيَّبْتَ أولياءَكَ عن الوسائطِ والأسباب التي أَقَمْتَ لها وجوداً بين الناس، فلم يجِدوا في الكون إلا خلقَكَ وتدْبيرَك، وغَيَّبْتَهُم عن الجمالِ المتناثر في جميلِ صُنْعكَ وإبداعِك، فلم يجِدوا في شيءٍ منهُ إلا جمالَك، وغيَّبْتَهُم عن المحسنين الذي أَقَمْتَهُم وسطاء بين عبادِك وبين إحسانِكَ إليهم، فلم يُبْصِروا الإحسانَ إلا مِنْك، ولم يجِدوا النِّعمة إلا من فضلِكَ وإحسانِك.

[٤٦٩] أي لما كانت هدايَتُهُم إليكَ بنورٍ منك، ولما كانت معرفَتُهُم لكَ بجذْبٍ مِنْكَ لهم إليك، لم يَبْقَ لهم إلى الأغيارِ أيَّ احتياجٍ في الاستدلالِ بها عليك، ولم يعُدْ إقبالُهُم إليها إلا سبباً لانشغالِهم بها عنك، فكانت من أجلِ ذلكَ مظهراً لاستيحاشِهِم منها. وكيفَ لا يستوحِشُون من الأكوانِ كلِّها، وقد عِلموا أنَّ الكونَ كلَّهُ ظُلْمة، وإنَّما أنارَهُ وجودُكَ فيه، فبِكَ استأنسوا في الأكوان، ومنها استوحشوا كلَّما انشغلوا بها عنك.

[٤٧٠] أجل، فإنَّ من لم يُبْصِرِ الموجِد لكلِّ شيء، والذي بِهِ يستمرُّ وجود كلِّ شيء، لن يجِدَ في الأغيارِ إلا أشباحاً فانية تفتقرُ في وجودِها في كلِّ لحظةٍ إلى الموجِد.

[٤٧١] ومَنْ وجَدَ الله بعينِ بصيرتِه، وعَلِمَ وحدانيَّتَهُ في الرُّبوبية، ووحدانيَّتَهُ في الصُّنْعِ والتَّدْبيرِ، والقَهْرِ والتيسير، لم يفقِد شيئاً من عظيمِ إبداعِهِ وباهرِ صُنْعِه، ولم يفقد شيئاً مما هو محتاجٌ إليهِ من رزقٍ يقيهِ من الفقر، وحمايةٍ تقيهِ من الأخطار، وتوفيقٍ يوصِلُهُ من آمالهِ إلى الغايات، وقوةٍ تُرافِقُهُ في سائر التحرُّكات. إذْ كلُّ ذلك يفِدُ إليهِ مِنَحاً من إلهِهِ الذي عرَفَهُ فرآهُ في كلِّ شيء.

[٤٧٢] أجل، فإنَّ من حُجِبَ عن الله، وتعلَّقَ بما دونَهُ، أضاعَ المعين واستبدَلَ به السَّراب...ومن حُجِبَ عن ألوهيةِ اللهِ وحُكمِهِ وتدبيرِهِ في الكون وتحوَّلَ عن الإذعانِ لهذهِ



يا مَنْ أذاقَ أَحبّاءَهُ حَلاوَةَ الْمُؤانَسَة، فَقامُوا بَيْنَ يَدَيْه مُتَمَلِّقينَ،[475] وَيا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِياءَهُ مَلابِسَ هَيْبَتِه، فَقامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَغْفِرينَ،[476] أَنْتَ الذّاكِرُ قَبْلَ

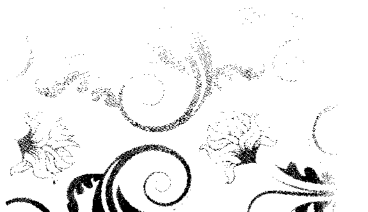
الحقيقة إلى تأليهِ شيءٍ من الأغيار، ينسبُ إليها ما هو من صفاتِ الله ومن مظاهرِ قَهْرِه وربوبيَّتِه، فقد خسرَ كلَّ ما يرجوهُ ويتأمَّل فيه. وقد جسَّدَ البيان الإلهي هذه الحقيقة في قصَّة نوح مع ابنه، فقال تعالى: "ونادى نوحٌ ابنَهُ وكانَ في معزِلٍ يا بُنَّي اركَب معنا ولا تكُن مع الكافرين، قالَ سآوي إلى جبَلٍ يعصِمُني من الماءِ قالَ لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله إلا منْ رحِمَ وحالَ بينَهُما الموجُ فكانَ من المغرَقين" (هود، ٤٢-٤٣). أرأيت إلى جواب الإبن: سآوي إلى جبلٍ يعصِمُني من الماء؟ ذلك هو منطق من حُجِبَ عن ألوهية الله وحُكْمِه وتدبيرِه في الكون، وتحوَّلَ عن الإذعانِ لهذه الحقيقة إلى تأليه شيءٍ من الأغيار....وكأنَّهُ يقول سألوذُ من طغيانِ الأغيار بشيءٍ من الأغيار، سألوذُ من طغيانِ الطبيعة بهذا الجبلِ الأشم!

[473] كيف تتَّجه الآمال ببعضِ النَّاس إلى سِواك، وهُمْ يرَون سلسلة نِعَمَك تمتدُّ دونَ انقطاع، ومظاهِر إحسانكَ تترى وقد جاوزَت الإحصاء؟

[474] تُرى هل انقطعَ الرِّفدُ الدَّائم من المحسنِ الأوحد الذي هو الله، أم هل بدَّلَ المولى عادَتَهُ في بسطِ مِنَنِه التي لا حصرَ لها، معروضة لعباده أجمعين؟ إنَّ شيئاً من هذا لم يقَع، فلماذا يُعرِض هؤلاء النَّاس عن المالكِ لكلِّ شيء ويتَّجهونَ بالآمالِ والرَّغائب إلى سِواك؟

[475] إلهي أنتَ أذَقْتَ أحبَّاءَكَ (الذين أحبَبْتَهُم فأحبُّوك) حلاوةَ الأُنسِ بِك، فقاموا بينَ يديك متودِّدين إليك، يشرحونَ لكَ شجْوَ نفوسِهم والحبّ الذي أخذَ بمجامعِ قلوبهم.

[476] إلهي أنتَ الذي كسَوْتَ أولياءَك هؤلاء كسْوَة المهابة التي ملأت أقطار نفوسهم، ففاضَت على رُسُومِهم وظواهِرِهِم، فأورَثَتْهُم عزَّةً تقاصَرَت دونَها سطوة الظالمين وتضاءَلَ أمامَها طغيان المتجبِّرين.





الذّاكرينَ،[٤٧٧] وَأَنْتَ الْبادئ بالإحْسانِ قَبْلَ تَوَجُّه الْعابدينَ،[٤٧٨] وَأَنْتَ الْجَوادُ بالْعَطاء قَبْلَ طَلَبِ الطّالبينَ،[٤٧٩] وَأَنْتَ الْوَهّابُ ثُمَّ لِما وَهَبْتَ لَنا مِنَ الْمُسْتَقْرِضينَ.[٤٨٠]

إلهي اُطْلُبْني بِرَحْمَتكَ حَتّى أَصلَ إِلَيْكَ، وَاجْذِبْني بِمَنِّكَ حَتّى أُقْبِلَ عَلَيْكَ.[٤٨١] إلهي إنَّ رَجائي لا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإنْ عَصَيْتُكَ، كَما أَنَّ خَوْفي لا يُزايلُني وَإِنْ أَطَعْتُكَ،[٤٨٢] فَقَدْ دَفَعَتْني الْعَوالِمُ إِلَيْكَ، وَقَدْ أَوْقَعَني عِلْمي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ.[٤٨٣]

---

[٤٧٧] أجل يا مولاي، وهل ذكروكَ بالطّاعةِ والولاءِ والحبِّ لكَ والشَّوْقِ إليك، إلا بعد أنْ ذكَرْتَهُم أنتَ بالحبِّ والرَّحمةِ وباهرِ المنَن والألطاف؟

[٤٧٨] أجل يا مولاي، وهل إحسانُ العبد إلى ربِّه إلا أثرٌ من آثارِ إحسان ربّه إليه؟ وهل أحسنَ من أحسن — إذا استجابَ لأمر ربِّه — إلا إلى نفسه؟

[٤٧٩] أجل، فإنَّ عطاءَ الله للعبد بدأَ قبل أنْ يطلُب العبد، وإنَّما الذي هيَّجَ مشاعر الطلَب في نَفْسِ العبد، ثم ترجَمَ مشاعرَهُ بلسانه، إلهامُ الله لهُ أنْ يطلُب ويُلحف بالطلَب.

[٤٨٠] وهذا تذكيرٌ بقولِ الله تعالى: "من ذا الذي يُقرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيُضاعفَهُ له أضعافاً كثيرة" (البقرة، ٢٤٥)، وإنَّكَ لتَجد في هذا الكلام الربَّاني من الألطاف ما يتيهُ ويحارُ العقلُ منه: يُكرِمُكَ اللهُ ويمُن عليكَ بالعطاء، والمالُ مالُهُ والكونُ كلُّه ملكُهُ، وأنتَ واحد من ممتلكاته، ثم يقولُ لك: أفتُقرِضُني شيئاً من هذا المال الذي في حوزتك، وإنِّي ملتزمٌ بأنْ أُعيدهُ إليكَ أضعافاً مضاعفة؟ فما ألطَف هذا التَّعامُل الذي يجري من الرَّبِّ تجاهَ العبد.

[٤٨١] يا إلهي أنا متبرئٌ من حولي وقوَّتي، وقد أمَرْتَني أنْ أسلُك السَّبيل إليك، فاطلُبني يا مولاي برحمة منك، وخُذْ بناصيَتي إليك، ودُلَّني بكَ عليك...ذلك لأنّي الكائن العاجز في مُلكك، ولأنّي اللاشيء أمام حُكمكَ وسُلطانك.

[٤٨٢] وكيف ينقطعُ الرَّجاء عمَّن يقول: "قُلْ يا عباديَ الذينَ أسرفوا على أنفُسهم لا تقْنَطوا من رحمة الله إنَّ اللهَ يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً إنَّهُ هو الغفورُ الرَّحيم" (الزمر، ٥٣)؟ وكيفَ



إلهي كَيْفَ أَخيبُ وَأَنْتَ أَمَلي؟ أَمْ كَيْفَ أُهانُ وَعَلَيْكَ مُتَكَّلي؟[٤٨٤] إلهي كَيْفَ اَسْتَعِزُّ وَفي الذِّلَّةِ أَرْكَزْتَني؟ أَمْ كَيْفَ لا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَني؟[٤٨٥] إلهي كَيْفَ لا

ينقطِع الخوف من سطوةِ الإله الذي يقول: "ولو يؤاخِذُ اللهُ الناسَ بما كسَبُوا ما تركَ على ظهرِها من دابَّة" (فاطر، ٤٥)؟ ومآلُ تمازج الخوف والرَّجاء أنْ يكون الإنسان دائماً بينَهُما، ولا تتحقَّق عبوديَّة الإنسان للهِ تعالى، إلا بأنْ يُقبِل عليه بدافعِ هذا المزيج. عدم وجود الرَّجاء يجعَلُهُ يائساً من رحمةِ الله، وعدم وجود الخوف يجعله جريئاً على معصيةِ الله، وهذَان خطران عظيمان. من الضَّروري بالنسبةِ للعبد أنْ لا ينقطِع رجاؤُهُ عن اللهِ وإنْ عصاهُ، وأنْ لا يزول خوفُهُ من اللهِ وإنْ أطاعَهُ.

[٤٨٣] إلهي إنَّ العوالِم كلّها دَلَّتْني عليك ودَفَعَتْني إليك، قرأتُ فيها سطور ربَّانيتك وآيات عظمتِك. وإنَّما الذي دفعَني اليوم بالوقوف عليك وبمدِّ يدِ المسألة إليك، ما أعلَمهُ من كرمِك، فقد أغراني كرمُكَ بقَرْعِ بابك.

[٤٨٤] يقول الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا عند ظنّ عبدي بي"، ومعناهُ أنَّ العبد إذا تعلَّقَت منهُ الآمال بكرمِ اللهِ وصَفْحِه، حقَّقَ اللهُ لهُ أملَهُ، ولم يُخيِّبه في رغائبِه. فكيفَ أخيبُ – يا إلهي – فيما أمَّلته ورجَوْته بعد أنْ علَّقْتُ آمالي بساحةِ كرمِك وفضلِك وأنتَ القائل: أنا عند ظنّ عبدي بي؟

[٤٨٥] إذا نظرَ العبدُ إلى ذاتهِ من حيثُ هو، مقطوعَ النِّسبة إلى ربِّه، مستوعباً لقولِه تعالى: "إنَّ العزةَ للهِ جميعاً" (يونس، ٦٥)، رأى نفسَهُ يتمرَّغ في وهدةِ الذُّل. ولكن إنْ نظرَ إلى ذاته منسوباً بنِسبةِ العبودية إلى ربِّه، مستوعباً لقولِه تعالى: "ذلكَ بأنَّ اللهَ مولى الذينَ آمنوا وأنَّ الكافرينَ لا مولى لهم" (محمد، ١١)، وقولِه: "وللهِ العزَّةُ ولرسولِه وللمؤمنين" (المنافقون، ٨)، عادَ إلى ذاتهِ ليرى أنَّهُ العزيز الذي لا يُغلَب، إذْ كيفَ يذلّ من إلى اللهِ نِسبتُهُ؟



أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذي في الْفُقَراءِ أَقَمْتَنى؟ أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَني؟[٤٨٦]

وَأَنْتَ الَّذي لا إلهَ غَيْرُكَ تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَىء فَما جَهِلَكَ شَىءُ. وَأَنْتَ الَّذي تَعَرَّفْتَ إلَيَّ فى كُلِّ شَىء، فَرَأَيْتُكَ ظاهِراً فى كُلِّ شَىء، وَأَنْتَ الظّاهِرُ لِكُلِّ شَىء.[٤٨٧] يا مَنِ اسْتَوى بِرَحْمانِيَّتِه فَصارَ الْعَرْشُ غَيْباً فى ذاتِه.[٤٨٨] مَحَقْتَ الآثارَ

---

[٤٨٦] إذا نظرَ العبدُ إلى ذاته من حيثُ هو، مقطوعَ النِّسبةِ إلى ربِّه، وتذكَّرَ قوله تعالى: "يا أيُّها الناسُ أنتُم الفقراءُ إلى اللهِ واللهُ هو الغنيُّ الحميد، إنْ يشأ يُذهِبكم ويأتِ بخلْقٍ جديد، وما ذلكَ على اللهِ بعزيز" (فاطر، ١٥-١٧)، أيقَنَ أنَّهُ فقيرٌ لا يملكُ من الدُّنيا ولا من أمرِ نفسه شيئاً، وعادَ إلى ذاته ليعلَم أنَّهُ اللاشيء. ولكن إنْ نظرَ إلى ذاته منسوباً بنسبةِ العبودية إلى ربِّه، مستوعباً لقوله تعالى: "وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ" (النجم، ٤٨)، عادَ ليرى أنَّهُ هو الغنيُّ الذي لا سبيلَ للفقْرِ إليه، إذ كيفَ يتسرَّب الفقْرُ إلى من باللهِ استغناؤُهُ وعليه اتكالُهُ؟

[٤٨٧] فأنتَ – يا ربِّ – المتفرِّد بالألوهيةِ في الكون، فما من شيءٍ خلَقْتَهُ وأبدَعْتَهُ إلا وعرَّفْتَهُ على ذاتك، حيواناً كانَ أو جماداً، فالكُل عرفَكَ وقدَّسَكَ وسبَّح بحمدِك. وأنتَ يا مولاي إذْ خصَصْتَني بالإكرامِ والإنعام، أرَيْتَني ذاتَكَ وأوصافَكَ في كلِّ شيء، فجعَلْتَ من الآثارِ والمخلوقات كلِّها مرآةً تواجهُني بحقائقِ ربوبيَّتِك، ودلائلِ وحدانيَّتِك. فأنتَ يا مولاي الإلهُ الظاهر لكلِّ شيء، كيفَ لا وأنتَ الذي عرَّفت ذاتَك على كلِّ شيء.

[٤٨٨] يقولُ تعالى: "الرَّحمن على العرشِ استوى" (طه، ٥)، ولم يقُل: الجبَّار أو القهَّار أو المنتقِم على العرشِ استوى، ليدُل بذِكْرِ وصف رحمانيَّته مقروناً باستوائهِ على العرش، على أنَّ العالَمَ كما قد غدا كالهباءة بالنسبةِ إلى عرشه، فكذلك العرشُ غدا شيئاً صغيراً، بل غائباً في ذاتِه. والمعنى: يا مَنْ تجلَّت رحمانيَّتُهُ منبسطةً على عرشِه، فتضاءَل العرشُ وانطوى ضمن ذاته.



بالآثارِ، وَمَحَوْتَ الأَغْيارَ بِمُحيطاتِ أَفْلاكِ الأَنْوار.[489] يا مَنِ احْتَجَبَ فى سُرادقاتِ عَرْشِهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الأَبْصارُ.[490] يا مَنْ تَجَلّى بِكَمالِ بَهائِه، فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ مَنْ الإسْتِواءَ.[491] كَيْفَ تَخْفى وَأَنْتَ الظّاهِرُ؟ أَمْ كَيْفَ تَغيبُ وَأَنْتَ الرَّقيبُ الْحاضِرُ؟[492] إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيء قَدير، وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ.

---

[489] محقْتَ – يا ربِّ – آثارَكَ التي هي العالَم بأثرٍ من أجلِّ آثارِك وهو العرش، وانمحى الجميعُ داخل محيطات صِفاتِك التي بها استنارَ العالَمُ وتحقَّقَ الوجود.

[490] السُّرادقات جمع السرادق: ما أحاط بالبِناء. وهنا يخاطِبُ اللهَ سبحانه بوصفِه الباطن، فيقول: ما مَنْ احتجبَ في سُرادقات عرشِه عن أنْ تُدركه الأبصار، أي إنَّما احتجَبْتَ يا مولاي عن أبصارِ عبادِك الكليلة، لأنَّها من الضَّعفِ والعجز بحيث لا يتأتَّى لها أنْ تُدرك ذاتَك التي لا يحدُّها مكان ولا تحصرُها زاويةُ نظَر، فليسَ بين عزَّتك التي تتسامى عن الشبيهِ والنَّظيرِ وأبصارِ الخلائق أيّ تناسُب قط.

[491] يخاطِبُ اللهَ سبحانه هنا بوصفِه الظاهِر، فيقول: يا مَنْ تجلّى بكمالِ بهائه، فتحقَّقَت عظمته الأسرار، أي تجلّى بكمالِ بهائِه للعقولِ والألباب، فتبيَّنَت عظمته ودلائل ربوبيته القلوبُ الخالية من نزَغات الاستكبار والفطرة الإنسانية الكامنة في كيانِ كلِّ إنسان.

[492] أي كيفَ تخفى عن الألباب وقد رأَتْكَ في مرآةِ آثارِكَ ومخلوقاتك؟ وكيفَ تكون غائباً عن البصائر وقد علِمْتُ أنَّكَ الرَّقيبُ على كلِّ شيء؟ وكيف يكون الرَّقيب على الشيءِ غائِباً عنه؟ أم كيف يكون الحاضِر في الألبابِ والخواطر غائباً عنها؟



الطبعة الأولى

الطبعة الأولى